المكتبة الثقافية
٣٢

الرسول فى بيته

عبد الوهاب حموده

أول مارس ١٩٦١

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبة جامعة تحوى جميع ألوان المعرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر . فى أوله وفى منتصفه

الكتاب القادم

أعلام الصحابة
المجاهدون

للأستاذ محمد خالد

١٥ مارس ١٩٦١

دار القلم بالقاهرة

الثمن

المكتبة الثقافية
٣٢

الرسول في بيته

عبد الوهاب حموده

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

أول مارس ١٩٦١

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة

مقدمة

إن دراسة هذا الجانب من الحياة ، حياة الرسول المنزلية فيها كشف الستار عن نوع من العظمة،قد يعبر به الدارس عبورا من غير ان يقف ليمتلىء روعة وإعجابا .

مع ان كثيرا من ابطال التاريخ ورسل الإصلاح إذا ماوصلت فى سلسلة حياتهم إلى هذه الحلقة ، حلقة سياستهم المنزلية ودخول المرأة فى تاريخهم ، رايت ضعفا واستسلاما وانقيادا وخضوعا أو غلظة وتهورا واحتقارا وازدراء ، وقلما تجد اعتدالا واتزانا وحكمة وحزما . على أن هذا الموضوع فى اغلب الظن لن يرضى فريقين من القراء :

فريق المتزمتين القاعدين عن النهوض فى سبيل المدنية المثقلين بأعباء العادات السقيمة والتقاليد البالية ، والمعوّقين للمرأة عن

تمدنها وتحضرها وتمتعها بحريتها وحقوقها كإنسان ، والمسرفين في رميها بالضعف وقذفها بسوء الظن،والمجردين لها من الأحاسيس الفطرية والمشاعر الإنسانية .

والفريق الثانى فريق هوسة التجديد ومجانين فك القيود والتحلل من كل التزام،ممن يدعون إلى الثورة علي كل عرف والخروج على كل تقليد،والتمرد ضد كل نظام دينى أو اجتماعى .

وإننا لواثقون من أنه لو تجرد كل من الفريقين عن الهوى ، ونظر بعين المنصف المعتدل لا بعين المغرض الساخط لاتخذوا من هذه الحياة التى سنسجلها نبراسا لحياتهم ومنهاجا لنهوضهم ودستورا لمنازلهم ، يحفظون لأسرهم قدسيتها ولشرقيتهم كرامتها ولعروبتهم مجدها ، ولمسوا فيها الروح الرياضية الكريمة والنزعة الإنسانيه السليمة ، مما يساير الأذواق ويلائم العواطف.لأن المرأة مسبار الأخلاق ومحك الرجولة وامتحان الإيمان ومعيار الصدق فى المبادىء والصلابة فى العقيدة .

هذا الفريق هو الذى سينظر إلى بحث هذا الجانب نظرة المغتبط بقوة الشخصية ، الواعى للعزة القومية المعجب بالرجولة الكاملة والمشاعر المتيقظة والديموقراطية المثالية .

حياته صلى الله عليه وسلم قبل زواجه

تنقسم حياته ﷺ المنزلية إلى عهدين، عهد بمكة وعهد بالمدينة، وكان له في كل عهد حياة متمايزة واضحة لها خصائصها وبواعثها وفيها مسراتها ومساءاتها.

أما في مكة فقد عاش حتى الخامسة والعشرين أعزب، لم يكن له بيت مستقل يدبره ولا منزل خاص تتمثل فيه سياسته وألوان أخلاقه، فإنه لما بلغ السادسة من عمره خرجت به أمه إلى أخواله بني عدي بن النجار بالمدينة تزورهم ومعها أم أيمن الحبشية حاضنته، فأقامت به عندهم شهرا ثم رجعت به قاصدة مكة.

فلما كانت بالأبواء بين مكة والمدينة توفيت ودفنت فيها.

فحضنته أم أيمن وجاءت به إلى جده عبد المطلب بعد خمسة أيام من موت أمه، فضمه إليه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده.

فقد كان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من أهل بيته ولا احد من أشراف قريش إجلالا له، فكان بنوه وسادات قريش يحدقون به، وكان رسول الله يأتي وهو غلام جَفْر ــ الغليظ الشديد ــ حتى يجلس عليه فيأخذه

اعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبدالمطلب إذا رأى ذلك: دعوا ابنى يجلس عليه فإنه يحس من نفسه بشرف، وأرجو أن يبلغ من الشرف مالم يبلغه عربى قبله ولا بعده. فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه، حضر عبد المطلب أو غاب.

ثم لما كانت سنه ﷺ ثمان سنين توفى عبدالمطلب. ولما حضرته الوفاة أوصى به إلى عمه شقيق أبيه ابى طالب فأحبه حبا شديداً، فكان لا ينام إلا إلى جنبه وكان يخصه بأحسن الطعام.

ثم إن أبا طالب خرج فى ركب تاجرا إلى الشام، فلما تهيأ للرحيل وأجمع المسير تعلق به رسول الله ﷺ وكانت سنه اثنتي عشرة سنة فرق له أبو طالب وقال والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدا.

فلما فرغ من تجارته قدم به مكة.

ثم خرج ﷺ إلى الشام مرة ثانية.

وسبب ذلك أن ابا طالب قال ياابن اخى:

أنا رجل لا مال لى وقد اشتد الزمان علينا وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة تبعث رجالا من قومك

يتجرون فى مالها ويصيبون منافع فلوجئتها لفضلتك على غيرك لما يبلغها عنك من طهارتك .

فقال ﷺ لعلها ترسل إلىّ فى ذلك .

فقال أبو طالب إنى أخاف أنْ تولى غيرك فتطلب امرا مدبرا . فافترقا .

فبلغ خديجة ما كان من محاورة عمه له ثم أرسلت إليه وقالت : إنما دعانى إلى البعثة إليك ما بلغنى من صدق حديثك وعظم أمانتك وكرم أخلاقك ، وأنا أعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك . فذكر ذلك ﷺ لعمه .

فقال : إن هذا لرزق ساقه الله إليك .

فخرج ﷺ ومعه ميسرة غلام خديجة ليرقبه عن كثب وينهى إلى السيدة عند عودته جملة حاله فى السفر ، فعلم بجملة حاله فى السفر والحضر .

وباع محمد واشترى ثم عاد وقد ربحت التجارة ربحا وفيرا ، وقص ميسرة على السيدة ما رأى من محمد فى السفر من رقة الشمائل وسهولة الخلق وصدق المعاملة .

فعلمت السيدة عند ذلك ان قلبها لم يكذبها فقطعت كل تردد وأجمعت ان تخطو هى الخطوة الأولى وتقول هى الكلمة الأولى .

وكانت لها صديقة تثق بها اسمها نفيسة بنت منبه . فدستها إلى محمد لتلوح له بالأمر وتعلم رأيه فيه .

نفيسة : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟ .

محمد : ما بيدى ما أتزوج به .

نفيسة : فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاية ، ألا تجيب ؟

محمد : فمن هى ؟

نفيسة : خديجة .

محمد : وكيف لى ذلك .

نفيسة : علىّ .

محمد : فأنا أفعل .

لا شك أن محمدا لم يقل مقالته الأخيرة إلا بعد أن أصبح يشعر نحو السيدة خديجة بمثل شعورها نحوه ، وبعد أن أصبح يبادلها عطفا بعطف وتقديرا بتقدير .

نعم إنها أسن منه ولكن ذلك ليس شيئاً بالقياس إلى محاسنها وفضائلها الكثيرة التى جعلته يرى فيها رغيبة نفسه وطلبة قلبه ، وعرض محمد الأمر على عمومته كما عرضته خديجة على عمها فكل وافق .

فخرج معه منهم حمزة وابو طالب وهو الذى خطب خطبة النكاح لأنه أسن من حمزة . فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبرهيم وزرع اسماعيل وأصل معد وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه، وجعل لنا بيتا محجوجا وحرما آمنا وجعلنا الحكام على الناس .

ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلاَّ رجح به شرفا و نبلا وفضلا وعقلا .

وإن كان فى المال قل فإن المال ظل زائل وعارية مسترجعة ومحمد ممن قد عرفتم قرابته ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما احببتم من الصداق علىَّ » .

فلما أتم أبو طالب الخطبة تكلم ورقة بن نوفل فقال :

« الحمد لله الذى جعلنا كما ذكرت وفضلنا على ماعددت، فنحن سادة العرب وقادتها وانتم أهل ذلك كله، لا تنكر العشيرة فضلكم ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبنا فى الاتصال بحبلكم وشرفكم فاشهدوا علىَّ يامعاشر قريش بأنى قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله » .

ثم سكت .

فقال أبو طالب قد أحببت أن يشركك عمها .

فقال عمها عمرو بن اسد اشهدوا عليّ يا معاشر قريش انى قد انكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد .

وشهد على ذلك صناديد قريش .

فأمرت خديجة عند ذلك جواريها أن يرقصن ويضربن الدفوف وقالت لمحمد مر عمك ينحر بكرا من بكراتك واطعم الناس . وهلمّ فقل مع أهلك فأطعم الناس .

ودخل ﷺ فقال معها فقرّ الله عينه . وفرح أبو طالب فرحا شديدا وقال الحمد لله الذى أذهب عنا الكرب ودفع عنا الهموم .



أول بيت له صلى الله عليه وسلم

هذا البيت هو دار خديجة بنت خويلد أول أزواجه ، وكانت هذه الدار فى زقاق بمكة يعرف بزقاق العطارين ، وكانت تحتوى على أربع غرف ثلاث داخلية منها واحدة لبناته وواحدة له ولزوجه والثالثة له ولربه والرابعة بمعزل له وللوفود ولعموم الناس .

وهذه الدار كانت فى جوار الحرم الأقدس حيث دور قريش حافة بالمسجد الحرام ، مستأثرة دون سائر القبائل بذلك الشرف الأسنى . ولقد قامت هذه الدار التاريخية التى كتب لها أن تشهد عرس محمد بن عبد الله وأن تستقبله بعد خمسة عشر عاما من العرس عائدا من غار حراء بعد أن تلقى رسالة السماء .

والآن قد ارتفع عن هذه الدار الطريق فينزل إليها بعدد من الدرجات. أقام النبى فى هذا البيت حتى هاجر إلى المدينة وفيه ولد له جميع أولاده ماعدا ابرهيم فقد ولد فى المدينة، كما سيجىء تفصيل ذلك عند الكلام على منزل المدينة .

وكان جميع أولاده فى هذا البيت من خديجة رضى الله عنها وكانوا ستة ، اثنين من الذكور وأربعا من الأناث .

أما الذكور فقد ماتوا صغارا فأصبح المنزل إذن يضم خديجة وبناته الأربع وهن زينب ورقية وأم كلثوم ثم فاطمة وهى أصغر أولاده ، ثم تزوجت زينب من ابن خالتها أبى العاص ، وتزوجت رقية من عتبة بن أبى لهب ، وأم كلثوم من عتيبة بن أبى لهب كل ذلك قبل النبوة إلا أن زواج رقية وأم كلثوم لم يطل فإنهما طلقتا ورجعتا إلى منزل أبيهما عندما نزل قوله تعالى (تبت يدا أبى لهب) فتزوج عثمان من رقية وهاجر بها إلى الحبشة ، فأصبح منزل مكة ليس فيه إلا خديجة ومعها ابنتها أم كلثوم وفاطمة .

ثم توفيت خديجة رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين فانضم إلى البيت زوجة جديد هى سودة بنت زمعة .

هذا هو مجمل للحالة التى كان عليها بيت مكة حتى هاجر صلوات الله عليه . أما تفصيل ذلك فنقول :

لقد أصبح محمد بعد تزوجه من خديجة هادىء السرب ناعم البال ، وأصبح له منزل يأوى إليه واهل يسكن إليهم ، فانصرف إلى ما كانت تصبو إليه نفسه من الخلوة وإطالة الفكرة ، فكانت خديجة تعينه على ذلك دون أن ترى فى مسلكه بأسا ، فلما فجأ الوحى محمدا وأصابه ما أصابه أول الأمر من الذهول والحيرة ورجع إلى منزله فزعا حائرا وقال لخديجة : « لقد خشيت على نفسى »

فلم يكن منها إلا أن ثبتت فؤاده وسكنت خاطره بمقالتها المشهورة كما جاء فى صحيح البخارى : « والله لايخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتؤدى الأمانة وتحمل الكل وتقرى الضيْف وتعين على نوائب الحق »

ثم إنها انطلقت من فورها إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وقصت عليه خبر زوجها فبشرها ورقة بأن الذى رآه محمد إنما هو الناموس الأكبر الذى نزل على عيسى وموسى .

وقد أثلجت تلك المقالة فؤادها وغدت من ذلك الوقت مؤمنة بدعوة زوجها فكانت بذلك أول من صدقه وآمن به .

ونلاحظ من خطة خديجة فى التخفيف من أعباء الوحى الذى لقيه الرسول صلوات الله عليه أنها أدركت من حقيقة الدين مالا يدركه عامة قومها، فعلمت أنه فضيلة وأن النبي الجدير أن يندب له هو الرجل الذى اتسم بالفضيلة . ثم ذكرت علامات للنبوة لايدركها كل من يسمع بالدين وإنما هى طبيعة مميزة وليست طبيعة منساقة إلى السماع والتقليد . فما نقل عنها أنها طلبت إلى النبي عليه السلام أن يخْبرها إذا جاءه جبريل فلما أخبرها قالت له :

« قم فاجلس على فخذى اليسرى » ففعل . فقالت: هل تراه ؟ قال : نعم . فألقت خمارها وسألته فقال : الآن لا أراه . قالت :

ياابن العم اثبت وأبشر فإنه ملك وماهو بشيطان .

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحى ، ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم فى العصر الحاضر ، فإن البديهة لاتشتغل بالوحى الدينى والنظر إلى جسد الأنثي فى وقت واحد ولاسيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة ·

فلا موجب إذن لشك المتشككين من المتحذلقين فى صحة هذه الأحاديث ·

ولم يزدد إيمان خديجة مع الزمن إلا رسوخا ولايقينها إلا قوة ولا تعلقها بزوجها إلا شدة ، فكانت فى السنوات العشر الأولى للبعثة وهى السنوات التى توالت الأرزاء والمحن على محمد وأصحابه واضطهدت فيها الدعوة أيما اضطهاد،كانت خديجة فى تلك السنوات إلى جانب زوجها تريش بتأييدها جناحه وتأسو بعطفها جراحه ·

ولم تتردد خديجة عندما جد الجد ان تشرك زوجها فى محنته وتقاسمه مر العيش كما قاسمته حلوه وتعمل لنصرة دعوته صابرة محتسبة،فعندما اشتدت قريش علي بنى هاشم والمطلب وحصرتهم فى الشعب ومنعتهم حتى الماء والزاد كانت خديجة فى الشعب تقاسى

مايقاسيه زوجها وأقرباؤه على كبر سنها واضمحلال بنيتها .

فلما فاءت قريش إلى صوابها وخلت سبيل اولئك المجاهدين المجهودين ، كان طول الحصار قد أضر بخديجة وأضرم المرض جثمانها فلم تعش إلا قليلا وقضت لعشر خلون من رمضان من العام العاشر للبعثة بالغة من العمر خمسة وستين عاما .

وقضى الله أن يفقد الرسول بعد خديجة وفى نفس العام، عمه أبا طالب وهو الذى كان ينافح دونه ويتولى حمايته من عدوان أعدائه ، فاجتمع على محمد فى وقت واحد خطبان فادحان ورزآن بالغان ولهذا سمى ذلك العام بعام الأحزان .

ولكن لاشك فى ان داخل رزئيه كان الأفدح وباطن جرحيه كان الأدمى، لقد تهدم صرح سعادته المنزلية وغدت الحياة مشغلة له فى الداخل والخارج على كثرة ماأعطاه الله فى الداخل والخارج.

كان محمد أكبر من أن ينسى لمحسن إحسانه وأكرم من ألا يفى لحبيب أصدقه الحب وأصفاه الود ولو باعدت بينه وبينه طباق الثرى، وكذلك كان شأنه صلوات الله عليه مع خديجة بنت خويلد لقد وفى لها فى حالى الحياة والموت ، احبها ولم يتزوج عليها فى حياتها .

فلما لحقت بربها لم تبرح صورتها خاطره ولا فارق تذكرها

لسانه . وأنه عندما أرسلت إليه ابنته زينب بقلادة قلدتها إياها خديجة لتفتدى بها زوجها أبا العاص بن الربيع وكان قد أسر يبدر رق النبي لذلك رقة شديدة وطلب إلى أصحابه أن يطلقوا لزينب أسيرها و مالها ففعلوا .

وانه كان إذا ذبح شاة تتبع صديقات خديجة يهدى إليهن منها.
وأنه كان لا يكاد يخرج من منزله حتى يذكر خديجة و يثنى عليها.
والحق أن دوام تذكره لها هاج غيرة عائشة وهى بعد آثر نسائه لديه واجملهن وأصغرهن سنا .

روى ابن الأثير بإسناده إلى عائشة أنها قالت :

كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها . فذكرها يوما من الأيام فأدركتنى الغيرة فقلت هل كانت إلا عجوزا فقد أبدلك الله خيرا منها ـ فغضب حتي اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال: لا والله ما ابدلنى الله خيرا منها ، آمنت بى إذ كفر الناس وصدقتنى وكذبنى الناس وواستنى فى مالها إذ حرمنى الناس ورزقنى الله منها أولادا إذ حرمنى أولاد النساء .

قالت : فقلت فى نفسى لا أذكرها بسيئة أبدا .

الأزمات التي حدثت في هذا البيت

حدثت في حياة الرسول في بيت خديجة أزمتان متشابهتان

الأزمة الأولى أزمة فتور الوحي:

فإنه بعد نزول الوحي بقوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم علم الإنسان مالم يعلم) فتر الوحي وانقطع جبريل مدة سميت بفترة انقطاع الوحي

في مدة هذه الفترة اختلاف كبير. قال بعضهم إنها سنتان، وقال بعض إنها ثلاث سنين. ولكن الصواب أن هذه الفترة كانت قصيرة الأمد كما روى عن ابن عباس وهي أربعون يوما على الأكثر.

وهذا الرأي له أسانيده التاريخية.

فإنه ثابت أنه في خلال السنوات الثلاث من الدعوة أسلم مالا يقل عن أربعين شخصا، وهذه الحقيقة الثابتة تكذب الادعاء القائل بأن فترة الوحي امتدت إلى ثلاث سنوات لأنه لو كان الادعاء صحيحا لتأخرت حتما بداية الدعوة إلى السنة الرابعة ولما شرع المسلمون يدخلون في دين الله قبل السنة الرابعة.

ولكن الثابت تاريخيا أن الإسلام في ذلك الوقت كان قد

عظم أمره وتكاثر أتباعه وأن هذا التكاثر فى عدد المسلمين هو الذى أقلق مضاجع أهل مكة وجعلهم يكيدون للمسلمين ، وهو مادعا النبي إلى أن ينتقل إلى مكان بعيد عن الاضطهاد للمضى فى دعوته مطمئنا فانتخب دار الأرقم لهذا الغرض ، فلما احتبس الوحى وفتر بعد تلك الزورة الأولى أزمت نفس الرسول وقلق فؤاده وشق ذلك عليه لأن الحرمان بعد التذوق أصعب من من حرمان من لم يذق. وكانت هذه الأيام أيام حيرة وقلق وانتظار، فهى أيام حيرة فى أمر العرب أنفسهم يراهم ﷺ فى سخافة عقائدهم وضعف بصائرهم باستيلاء الأوهام عليهم وفساد أعمالهم وتفرق كلمتهم وإشرافهم على الهلاك باستعباد الغرباء لهم وتحكيم الأجانب فيهم ، فما العمل فى تقويم عقائدهم وتخليصهم من تحكم عاداتهم وهى حيرة لم يكمل الحظ من شرفها إلا للنبيين والمرسلين .

وهناك حيرة أخرى فى شأن نفسه فقد كان يخشى أن يكون ذلك الإنقطاع بسبب منه استوجب عقوبته من ربه، أو لأمر صدر منه استحق عليه الحرمان والهجر .

وأما القلق والانتظار فهو قلق الشوق . فإن الشوق إذا اشتد تحول إلى قلق فلا يسكن القلب الا إذا أدرك مايصبو إليه وشاهد مايشتاق له، ومن ثم تنتابه الأوهام والأحزان وتتملكه

الهواجس والخواطر ويكون فريسة للظنون ونهبة للهموم .

وليس بعجيب أن يزداد شوق الرسول إلى مناجاة ربه بعد أن تذوقها ويحن قلبه حنونه بعد أن استضاءت روحه بصيص الأنوار القدسية وتملّى بها فإن (من ذاق عرف ومن حرم انحرف)

وأبرح مايكون الشوق يوما إذا دنت الديار من الديار

ومما زادفي قلقه - صلوات الله عليه - وضاعف فى حيرته انه لم يجد من يسرّى عنه بكلمة فيها امل أو بخبر فيه رجاء واطمئنان فلا خديجة تستطيع أن تروى بقولها ظمأه لتلك المشاهدة ، ولا ورقة بن نوفل يقوى على إخباره بما يطمئنه بأن اللقاء قريب وأن العود سريع .

فهذه أزمة لايجدى فى حلها إلا فيض إلهى وغيث سماوى (وننزل من القرآن ماهو شفاء)

وإن للهمن وراء تلك الفترة وذلك الاحتباس سر المربى القادر والمؤدب الحكيم العليم بالنفوس و بواطنها الخبير بالقلوب و تقلباتها ، فإنه لما حصل للرسول روعة عند نزول الملك عليه أولا وأخذته من الرجفة ما أخذته وظن نفسه هالكا فمن الحكمة الإلهية أن يترك بعد الدرس الأول حتى يهدأ روعه ويطمئن فؤاده ويتهيأ

لقبول الرسالة ويستعد لتلقى القول ، ثم أراد الله أن يمنحه ما كان في شوق إليه وأن يؤتيه ما كانت تتوق نفسه له من ذلك الأنس الروحاني والكشف الإلهي والوحي الرباني فكان لصدره فرحا من ذلك الضيق ولنفسه فرجا من تلك الأزمة .

روى البخارى أن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحى فقال فى حديثه :

بينا أنا أمشى إذ سمعت صوتا من السماء فرفعت بصرى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت دثرونى دثرونى فأنزل الله تعالى : (يأيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر) ثم حمى الوحى وتتابع .

ويأتى الآن الحديث عن الأزمة الثانية

وهى أزمة الفترة الثانية من فترات الوحى . وقد كانت هذه الفترة قصيرة غير طويلة فلم تزد على ثلاثة أيام .

روى فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ اشتكى فلم يقم للتهجد ليلتين أو ثلاثا فجاءت امرأة ـ وهى أخت أبى سفيان ـ فقالت متهكمة : يامحمد ماأرى شيطانك إلا قد تركك لم أره قربك

منذ ليلتين أو ثلاثا . فانزل الله عز وجل :

(والضحى والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى . ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى . فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر . وأما بنعمة ربك فحدث)

وفى هذه السورة تسلية منه تعالى لرسوله .

أولاده عليه السلام من خديجة

كان له عليه السلام من خديجة ستة : ولدان وأربع بنات، اما الولدان فهما : القاسم وهو أول أولاده. ولد قبل النبوة وبه ﷺ كان يكنى فيقال يا أبا القاسم وعاش حتى مشى ومات قبل المبعث وهو أول من مات من أولاده عليه الصلاة والسلام ، والثانى عبدالله ولد بعد المبعث ومات صغيراً لم تعلم مدة حياته لقلة الاعتناء بالتاريخ إذ ذاك وكان يلقب عبدالله بالطيب والطاهر .

أما بناته فكن أربع : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة رضى الله عنهن .

وكلهن ولدن قبل النبوة وادركن الإسلام وتزوجن وهاجرن ، وأكبرهن زينب وأصغرهن فاطمة .

وقد انضم إلى هؤلاء على بن أبى طالب ضمه النبي إلى اولاده تخفيفاً عن عمه أبى طالب فقد كان فقيراً كثير العيال .

فقد ذكر ابن إسحق فى السيرة قال :

كان من نعمة الله على على بن أبى طالب ومما صنع الله وأراده به من الخير أن قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان

أبو طالب ذا عيال كثير ، فقال رسول الله ﷺ للعباس عمه وكان من ايسر بنى هاشم :

ياعباس إن اخاك أبا طالب كثير العيال وقد اصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة والشدة فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله آخذ أنا من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا فنكفيه همهما .

فقال العباس : نعم — فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له :

إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه .

فقال لهما أبو طالب : إذا تركتما لى عقيلا وطالبا فاصنعا ماشئتما .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فضمه إليه وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه .

فلم يزل على مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً فاتبعه على رضى الله عنه وآمن به وصدقه .

ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

هذا وليس بأيدينا مع الأسف نصوص نعرف كيف كانت خديجة تعول أولادها وتنشئهم . غير ان ما ورد من الأخبار على قلته لا يخلو من الفائدة .

روى ابن سعد عن الواقدى أن خديجة كانت تعق عن كل غلام — أى تذبح — بشاتين،وعن الجارية بشاة. وكان بين كل ولدين لها سنة. وكانت تسترضع لهم وتعد ذلك قبل ولادها.

وكما كانت خديجة تعنى بولادة أولادها ورضاعتهم وتنشئتهم فقد كانت تتخير الأزواج لبناتها.

فهى التى أشارت على النبي بأن يزوج أبا العاص بن الربيع من بنتها زينب، فلما زفت إليه أهدتها خديجة قلادة كان لها شأن فيما بعد سيرد ذكره، ولما أرادت قريش حمله على أن يطلق زينب نكاية فى محمد أبى أن يفارقها مع أنه لم يكن قد أسلم بعد.

وقد تزوج عثمان بن عفان رقية فلما توفيت ورآه النبي حزيناً مهموماً لهفان زوجه أختها أم كلثوم وكانت فاطمة عند زوجها على بن أبى طالب بالمحل الرفيع والمكان الممتاز.

والآن لقد حان الوقت لأن نذكر سير حياة كل بنت من بناته رضوان الله عنهن.

زينب

زينب رضى الله عنها هى أكبر بناته ولدت فى سنة ثلاثين من مولده صلى الله عليه وسلم أى بعد زواجه من خديجة بخمس

سنين ، وأدركت الإسلام وأسلمت وهاجرت بعد بدر .

وذلك أنها كانت تزوجت بابن خالتها أبي العاص وأقامت معه على إسلامها وهو على شركه، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان رسول الله لا يحل بمكة ولا يحرم مغلوبا على أمره ، وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أسلمت وبين أبي العاص إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدر أن يفرق بينهما فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه حتى هاجر رسول الله .

فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع فأصيب فى الأسارى يوم بدر فكان بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله فى فداء أبي العاص بمال وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى بها .

فلما رآها رسول الله ﷺ رق لها رقة شديدة وقال : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا .

فقالوا : نعم يارسول الله فأطلقوه وردوا عليها الذى لها وفيه قلادتها .

وأخذ النبي ﷺ على أبي العاص أن يخلّى سبيل زينب إليه

وكان هذا فيما شرط عليه فى إطلاقه ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله فيعلم ماهو فوعد أبو العاص بذلك .

وفك رسول الله عن السائب بن عبيد وعبيد بن عمرو بن علقمة بغير فدية لأنه لا مال لهما ولم يقدم لهما أحد .

وكان فى الأسرى من يكتب ولم يكن فى الأنصار من يحسن الكتابة ، وكان منهم من لا مال له فيقبل منه ان يعلم عشرة من الغلمان الكتابة ويُخلى سبيله .

ولما خرج أبو العاص إلى مكة وخلى سبيله بعث رسول الله ﷺ زيد ابن حارثة ورجلا من الأنصار فقال: كونا ببطن يأجج (موضع على ثمانية اميال من مكة) حتى تمر بكما زينب فتصحباها حتى تأتيانى بها .

فخرجا مكانهما وذلك بعد بدر بشهر .

فلما قدم ابو العاص مكة امرها باللحوق بأبيها فخرجت تتجهز .

وتقول زينب تصف رحلتها .

بينا انا اتجهز بمكة للحوق بأبى لقيتنى هند بنت عتبة فقالت :

يابنت محمد الم يبلغنى انك تريدين اللحوق بابيك .

فقلت ما اردت ذلك .

فقالت أى ابنة عمى لا تفعلى إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك فى سفرك أو بمال تتبلغين به إلى ابيك فإن عندى حاجتك فلا تستحي منى أو تهمينى فإنه لايدخل بين النساء ما بين الرجال .

قالت زينب والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل ولكنى خفتها فأنكرت أن أكون أريد ذلك وتجهزت .

فلما فرغت بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم من جهازها قدم لها أخو زوجها كنانة بن الربيع بعيرا فركبته وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهارا يقود بها وهى فى هودج لها .

وتحدث بذلك رجال من قريش فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى (موضع قرب مكة) فكان أول من سبق إليها هبار ابن الأسود بن المطلب ونافع بن عبد قيس فروعها هبار بالرمح ونخس بها الراحلة فسقطت على صخرة وهى حامل فهلك جنينها ولم تزل تهريق الدماء حتى ماتت بالمدينة بعد إسلام بعلها ابى العاص .

فنثر كنانة ونثر كنانته ثم قال :

والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما فرجع الناس وانصرفوا وأتى ابو سفيان فى جلة من قريش فقال :

أيها الرجل كف عنا نبلك حتى نكلمك فكف .

فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال :

إنك لم تصب، خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد فيظن الناس إذا خرجت بابنته إليه علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ولعمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ومالنا فى ذلك طلب ثأر ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها فسلها سرا وألحقها بأبيها .

ففعل كنانة فأقامت زينب ليالى حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلا حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه .

فقدما بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأقام أبو العاص بمكة وأقامت زينب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين فرق الإسلام بينهما حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجرا إلى الشام وكان رجلا مأمونا بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه .

فلما فرغ من تجارته وأقبل قافلا لقيته سَرِيَّة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابوا مامعه وأعجزهم هاربا .

فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله أقبل أبو العاص تحت الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله فاستجار بها فأجارته وجاء فى طلب ماله .

فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصبح فكبر وكبر الناس صرخت زينب من صفة النساء : أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

فلما سلم رسول الله من الصلاة أقبل على الناس فقال :

أيها الناس هل سمعتم ماسمعتُ ؟

قالوا : نعم .

قال أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعتُ ما سمعتم إنه يجير على المسلمين أدناهم .

ثم انصرف رسول الله ﷺ فدخل على ابنته فقال :

أى بنية أكرمى مثواه ولا يخلُصَنَّ إليك فإنك لاتحلين له.

ثم بعث رسول الله إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال لهم .

إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم وقد أصبتم له مالا فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك وإن أبيتم فهو فىء الله الذى أفاء عليكم فأنتم أحق به .

فقالوا يارسول الله بل نرده عليه فردوه عليه حتى إن الرجل ليأتى بالدلو ويأتى الرجل بالسقاء وبالإداوة حتى ردوا عليه ماله بأسره لايفقد منه شيئا .

ثم احتمل إلى مكة فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ثم قال : يامعشر قريش هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه؟ قالوا : لا ، فجزاك الله خيرا فقد وجدناك وفيّا كريما قال : فأنا أشهد أن لاإله إلا الله وان محمدا عبده ورسوله. والله مامنعنى من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما اردت أن آكل أموالكم فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .

ثم خرج حتى قدم على رسول الله فرد عليه زينب بنكاح جديد سنة سبع من الهجرة واجتمع الشمل الممزق وتلاقى الزوجان بعد فراق طال مداه .

ومضى عام واحد فحسب ثم كان الفراق الذى لالقاء بعده فى هذه الدنيا، ماتت (زينب) فى مستهل السنة الثامنة من الهجرة متأثرة بعلتها التى لزمتها منذ طرحت جنينها على اديم الصحراء وهى خارجة من مكة .

ولقد وجد الرسول صلوات الله عليه فى أمامة بنتها ما يخفف حزنه على زينب فكان يأنس بها ويلاطفها .

فقد روى أبو داود عن أبي قتادة : بينا نحن ننتظر رسول الله ﷺ في الظهر أو العصر إذ خرج علينا رسول الله وأمامة على رقبته فقام في الصلاة وقمنا خلفه فإذا سجد وضعها وإذا قام حملها وإذا رفع رأسه من السجود أعادها .

وروى أحمد عن عائشة ان النجاشي أهدى للنبي ﷺ حلة فيها خاتم من ذهب فصه حبشي فأعطاه أمامة .

وروى ابن سعد واحمد وأبو يعلى عن عائشة . اهديت له هدية فيها قلادة من جزع معلمات بالذهب و نساؤه كلهن مجتمعات في بيت وأمامة تلعب في جانب البيت. فقال كيف ترين هذه فنظرن إليها فقلن مارأينا أحسن منها ولا أعجب .

فقال لأدفعنها إلى أحب أهلي إلي .

فقالت النساء ذهبت بها ابنة أبي قحافة .

فدعا ﷺ أمامة بنت زينب فعقدها بيده في عنقها .

وتزوجها علي بن أبي طالب بعد فاطمة خالتها بوصية من فاطمة بذلك .

فبان لك من موجز حياة زينب رضي الله عنها أنها مكثت في بيت أبيها بمكة حتى تزوجت أبا العاص .

ثم لما هاجر أبوها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يثرب

واستقر به المقام هناك أرسل إلى بيت خديجة من يصحب أختيها « فاطمة وأم كلثوم » إلى يثرب وكانت رقية قد هاجرت كذلك من قبل .

فبقيت زينب دونهن فى دار أبى العاص بمكة وقد خلت من كل الأهل وإذا دار أبيها مغلقة خلاء اللهم إلا من أطياف الأحباب الذين هجروها كارهين .

وطالما وقفت زينب بالديار المقفرة الموحشة تسألها :

أين من كانوا بالأمس يملئونها بهجة وأنسا ؟

أين محمد وخديجة ؟ وأين رقية وأم كلثوم وفاطمة ؟ وأين القاسم والطيب ؟ رحلوا جميعا .

فأما خديجة وولداها فإلى غير مآب

وأما محمد وبناته فإلى هجرة واغتراب

رقية :

ولدت رقية سنة ثلاث وثلاثين من مولده عليه السلام أى بعد زواجه من خديجة بثمان سنين .

وكانت رقية تحت عتبة بن لهب وأختها أم كلثوم تحت أخيه عتيبة وكان تزوجها قبل النبوة .

فلما نزلت (تبت يدا ابى لهب وتب) بعد ما انذر ﷺ عشيرته لما نزل (وأنذر عشيرتك الأقربين) قال لهما أبوهما : «رأسى من رءوسكما حرام إن لم تفارقا ابنتى محمد ففارقاهما ولم يكونا دخلا بهما » .

فتزوج عثمان بن عفان رقية بمكة ثم هاجر بها الهجرتين إلى أرض الحبشة واحتبس خبرهما عن النبي ﷺ حتى أتته امرأة فأخبرته أنها رأتهما . فقال ﷺ : « صحبهما الله إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط » .

وولدت له هناك عبد الله وعاش ست سنين ومات سنة أربع من الهجرة فتوفى بعد أمه .

ولما توفى عبد الله وضعه النبي ﷺ فى حجره وقال (إنما يرحم الله من عباده الرحماء) .

وتوفيت رقية والنبي ببدر .

أم كلثوم :

فى بيت الرسول بمكة رقدت خديجة فى فراشها تتهيأ للقاء ربها وبناتها الثلاث زينب وأم كلثوم وفاطمة يحطن بفراشها ويتزودن منها قبل الرحيل.أما رقية فقد كانت فى هجرتها بالحبشة .

وفى اليوم العاشر من رمضان سنة عشر من البعثة حملت إلى الحجون ، وهنالك أضجعها زوجها الرسول ثم ودعها وآب إلى بيته محزونا فضم إليه ابنتيه أم كلثوم وفاطمة .

وأحس من تلك اللحظة أن مكانه بمكة قد نبا به فلم يعد له فيها بعد رحيل خديجة وعمه أبى طالب مقام .

فلما أذن الله له فى الهجرة إلى يثرب ذهب إلى بيت الصديق أبى بكر فاستصحبه ، ومضى فى طريقه إلى الغار يصحبه الصديق وترك ابنتيه أم كلثوم وأختها فاطمة وحيدتين فى البيت المهجور يكاد يتلفهما الأسى لولا رحمة الله .

وتلكأت الأيام فى سيرها متباطئة مشحونة بالقلق واللهفة ومضت الليالى حوالك حتى جاءت البشرى بوصول النبى سالما إلى يثرب ، ثم مالبث زيد بن حارثة أن أقبل ليصحب ام كلثوم وشقيقتها الصغرى إلى دار الهجرة .

فأمسكت أم كلثوم بيد أختها الصغرى فاطمة ومضت بها إلى حيث كان « زيد » ينتظرهما متهيئا للرحيل .

ومضى على الهجرة عامان حافلان بجليل الأحداث وشهدت « أم كلثوم » عودة أبيها منتصراً من غزوة « بدر » كما شهدت موت شقيقتها الغالية « رقية » .

ولما توفيت رقية لقى عمر بن الخطاب عثمان بن عفان فعرض عليه حفصة ، فقال سأنظر فلبث ليالى ثم قال « قد بدالى ان لاأتزوج يومى هذا » وكذلك عرضها على ابى بكر فسكت .

فذكر ذلك عمر لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« تتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة » فتزوج عثمان بأم كلثوم سنة ثلاث من الهجرة وماتت عند عثمان سنة تسع من الهجرة .

فبان إذن أن بيت مكة بعد أن فرقت يد الدهر شمله و نثرت عشه لم يبق فيه حتى الهجرة سوى أم كلثوم و فاطمة .

فاطمة الزهراء :

استقبلها البيت المحمدى وليدة قبل المبعث بخمس سنوات اى بعد زواجه صلى الله عليه وسلم من خديجة بعشر سنوات وهى صغرى بناته .

ظلت فى بيت أبيها حتى نقلت إلى يثرب مع أختها أم كلثوم وتزوجت بعلى بن أبى طالب فى السنة الثالثة من الهجرة بعد أحد ، وكانت فاطمة أحب اهله إليه،وهى رزئت بالنبى صلى الله عليه وسلم دون غيرها من بناته فإنهن متن فى حياته .

ولما تزوج علىّ فاطمة بالمدينة قال عليه السلام لعلى « اطلب منزلا » فطلب على منزلا فأصابه مستأخرا عن النبي صلى الله عليه وسلم قليلا فبنى بها فيه فجاء النبي إليهما فقال إنى أريد أن أحولك إلىّ.

فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء إلى النبي ﷺ فقال « يارسول الله ، إنه بلغنى أنك تحول فاطمة إليك وهذه منازلى ، وهى أسبق بيوت النجار ، وإنما أنا ومالى لله ورسوله والله يارسول الله للذى تأخذ منى أحبّ إلىّ من الذى تديم لى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صدقت بارك الله عليك » فحولها رسول الله إلى بيت حارثة .

فظلت إذن فاطمة رضى الله عنها فى بيت المدينة حتى السنة الثالثة من الهجرة ، وكان الرسول يديم النظر والزيارة لفاطمة وإذا أراد سفرا يكون آخر عهده بها من أهله .

وإذا قدم كان أول من يدخل عليها بعد صلاة ركعتين بالمسجد ثم يأتى أزواجه بعد ذلك .

وقال عليه الصلاة والسلام « فاطمة بضعة منى فمن أغضبها أغضبنى » .

وهذا التخصيص بذلك للمبالغة فى رضاها لما قالت له :

زعم قومك أنك لاتغضب لبناتك وهذا علىّ قد خطب بنت أبى جهل ـ وكان ذلك بعد فتح مكة .

فقام صلى الله عليه وسلم فتشهد وقال : « إنى زوجت أبا العاصى من بنتى زينب فحدثنى وصدقنى ووعدنى فوفى لى ، وإن فاطمة بضعة منى وإنى أكره ما يسوءها ، والله لاتجتمع بنت رسول الله وبنت عدو الله عند رجل واحد .

فترك على الخطبة ورجع عن عزمه .

لم تكن حياة « الزهراء » فى بيت زوجها حياة مترفة ولا ناعمة بل كانت أقرب إلى أن توصف بالخشونة والفقر .

ففى مسند أحمد وفى الصحيحين عن على أن فاطمة شكت ما تلقى من أثر الرحى مما تطحن ، فأتى النبى صلى الله عليه وسلم سبى فانطلقت فلم تجده فأخبرت عائشة . فلما جاء صلى الله عليه وسلم أخبرته عائشة بمجىء فاطمة وما جاءت من أجله ، فذهب صلى الله عليه وسلم إليها وقد أخذت هى وزوجها مضاجعهما فذهبت فاطمة لتقوم فقال لها على « مكانكما » .

وقال « ألا أعلمكما خيرا مما سألتمانى .

قلنا بلى . قال كلمات علمنيهن جبريل .

إذا أخذتما مضاجعكما من الليل فكبرا ثلاثا وثلاثين ، وسبحا

ثلاثا و ثلاثين،واحمداً ثلاثا و ثلاثين فهو خير لكما من خادم .

وانتظمت حياة في السكن الجديد الذى اوى إلى ظل النبي على مثال من الحياة النبي فى بيته : عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية وقد رزق الأبوان الفقيران نصيبا صالحا من البنين والبنات : الحسن والحسين ومحسن وزينب وأم كلثوم .

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذى كان يواليهم به جميعا ولا يصرفه عنه شاغل من شواغله الجسام فى محتدم الدعوة والجهاد . وقد اوشكت كل كلمة قالها فى تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخا محفوظا فى الصدور والأوراق .

فلما ولد الحسن. سماه والداه (حربا) فجاء رسول الله فقال: أرونى ابنى ، ما سميتموه ؟

قالوا : (حرب) .

قال : بل هو حسن . وهكذا عند مولد الحسين وعند مولد محسن وقد مات وهو صغير .

وكان صلوات الله عليه يدلل الطفل منهم ويستدرجه ، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبي، والنبي

يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ولم يلبث ان حفظها المشرقان .

وربما شوهد النبي عليه السلام ساجدا وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه فيتأنى فى صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبه ، بل ربما كان على المنبر فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران فيسبقه حنانه إليهما ، وينزل من المنبر ليحملهما وهو يقول : —

صدق الله العظيم (إنما أموالكم واولادكم فتنة) .

وكان إذا سمع أحدهما يبكى نادى فاطمة وقال لها :

ما بكاء هذا الطفل ؟ ألا تعلمين أن بكاءه يؤذينى ؟

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حينا بعد حين ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان .

وكانت فاطمة تشكو حينا بعد حين ، ويعودها النبي يواسيها فى مرضها فإذا هو يواسيها كذلك فى حاجتها .

زارها يوما وهى مريضة فقال لها :

كيف تجدينك يا بنيه ؟

فقالت : إنى لوجعة . ثم قالت : وإنه ليزيدنى أنى مالى طعام آكله .

فاستعبر صلوات الله عليه وقال :

يابنية أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين .

وزارها يوما وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل فبكى وقال :

تجرعى يافاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة .

وحضرها الموت وخذلتها جوارحها ، وعزيمتها فى مواجهة الموت حاضرة لاتخذلها فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها.

وقالت لصاحبتها اسماء بنت عميس بعد أن اغتسلت كأحسن ماتغتسل .

« يا امه ائتينى بثيابى الجدد فلبستها » ثم قالت :

قد اغتسلت فلا يكشفن لى أحد كنفا وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها :

أتستطيعين أن توارينى بشىء ؟ قالت :

إنى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير .

فعمل لها نعشها قبل وفاتها ونظرت إليه فقالت :

سترتمونى ستركم الله ، وتبسمت ولم تر متبسمة بعد وفاة ابيها إلا ساعتها ، ثم أغمضت عينيها ونامت .

وقام على فاحتملها باكيا ، ودفنها بالبقيع ثم ودعها محزونا إلى صغاره وإلى البيت الذى أوحش من بعد الزهراء .

وعاد الشمل الممزق فالتأم من جديد ، ولكن فى غير هذا العالم فضم ثرى يثرب جثمان فاطمة كما ضم جثمان أبيها صلى الله عليه وسلم من قبل ستة أشهر وضم اخواتها الثلاث : زينب ورقية وأم كلثوم رضوان الله عليهن جميعا .

آخر العهد ببيته بمكة

كان لفقد خديجة وقع أليم فى نفس النبي فحزن عليها حزنا عميقا .

فلما رأت إحدى المؤمنات ذلك ـ وهى خولة بنت حكيم ، جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقالت :

يارسول الله ألا تتزوج ؟

فقال ومَن ؟

قالت إن شئت بكرا وإن شئت ثيبا .

فقال مَن البكر ومَن الثيب ؟

قالت أما البكر فابنة احب خلق الله إليك عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

وأما الثيب فسودة بنت زمعة قد آمنت بك واتبعتك .

قال فاذكريهما علىّ .

قالت خولة فأتيت أم رومان فقلت يأم رومان ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة ؟

قالت وماذاك ؟

قلت رسول الله يذكر عائشة .

قالت وددت ، انتظرى أبا بكر .

فجاء فذكرت ذلك له .

فقال : أو تصلح له وهى ابنة أخيه .

فرجعت فذكرت ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم .

فقال : قولى له إنت أخى وأنا اخوك فى الإسلام وابنتك تصلح لى .

فرجعت وأخبرته بذلك .

فقال أبو بكر لأم رومان إن المطعم بن عدى قد كان ذكرها على ابنه ، والله ما أخلف ابو بكر وعداً قط .

فأتى أبو بكر المطعم وعنده امرأته أم الفتى فقال ماتقول فى امر هذه الجارية ؟

فأقبل على امرأته فقال ماتقولين ؟

فأقبلت على أبى بكر فقالت لعلنا إن أنكحنا هذا الصبى

إليك تصبئه أى تخرجه من دينه وتستميله وتدخله فى دينك والذى أنت عليه .

فقال أبو بكر وماتقول أنت ؟

فقال إنها لتقول ماتسمع .

فقام أبو بكر ليس فى نفسه شىء من الموعد ، فقال لخولة قولى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فليأت .

فدعته فجاء رسول الله فتزوجها . أى عقد عليها بمكة فى شوال سنة عشر من النبوة قبل الهجرة بثلاث سنين . وأعرس بها بالمدينة.

قالت خولة ثم ذهبت إلى سودة بنت زمعة فقلت ما أدخل الله عليكم من الخير والبركة .

قالت : وما ذاك ؟

قلت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسلنى إليك لأخطبك عليه ، قالت وددت ذلك . ولكن ادخلى على أبى واذكرى له ذلك وأبوها شيخ قد جلس عن الموسم .

قالت خولة : فدخلت عليه وحييته بتحية أهل الجاهلية فقلت أنعم صباحا .

فقال : من أنت ؟

قلت : خولة بنت حكيم .

فرحب بى وقال ماشاء الله ان يقول .

قالت خولة : محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب يذكر سودة ابنة زمعة ، فقال : هو كفء كريم فما تقول صاحبتك ؟

قلت : تحب ذلك .

قال الشيخ : فليأت .

فجاء صلى الله عليه وسلم فتزوجها ودخل بها قبل عائشة رضى الله عنها .

وقصة سودة بنت زمعة ام المؤمنين ، أنها اسلمت قديما وبايعت على الإسلام وكانت تحت ابن عم لأبيها يقال له السكران بن عمرو أسلم معها قديما وهاجرا جميعاً إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية فلما قدما مكة مات زوجها ، فتزوجها صلى الله عليه وسلم .

والحكمة فى اختيارها أنها من المؤمنات الهاجرات لأهليهن خوف الفتنة والتعذيب لإرجاعها عن الإسلام .

فاختار صلى الله عليه وسلم كفالتها ، وفيه تأليف لبنى عبد شمس أعدائه واعداء بنى هاشم ، وتشريف لبنى النجار أخوال عترته وأكرم أنصاره ،وكانت أول من ذكر له مع عائشة فكفلها صلى الله عليه وسلم .

فهو لم يجمع بمكة بين زوجين حتى هاجر إلى المدينة .

البيت الثانى - المدينة

عندما وصل صلوات الله عليه المدينة حمل رحله إلى بيت أبى أيوب الأنصارى واقام فيه سبعة أشهر ، ومن هناك اشرف على مشروعات ثلاثة قام على تنفيذها .

أولها بناء المسجد :

فإنه صلى الله عليه وسلم كان يصلى حيث ادركته الصلاة فأراد بناء مسجد جامع للمصلين معه ، فأرسل إلى ملأ من بنى النجار وقال: « يابنى النجار ثامنونى » — اى اذكروا لى ثمنه لأشتريه منكم — بحائطكم . اى بستانكم .

قالوا : لا بل نهبه لك يارسول الله .

فأبى أن يقبله منهما هبة حتي ابتاعه منهما ثم بناه مسجدا . وكان فى موضع المسجد نخل وخرب ومقابر مشركين ، فامر بالقبور فنبشت وبالخرب فسويت بإزالة ما كان فيها وبالنخل فقطعت وجعلت عمدا للمسجد. ثم أمر باتخاذ اللبن — وهو الطوب النيء — فاتخذ وبنى المسجد وسقف بالجريد وعمل فيه المسلمون فكانوا يحملون لبنة لبنة ، وكان عمار بن ياسر ينقل لبنتين لبنة

عنه ولبنة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عليه السلام بعد مسح ظهره و نفض التراب عنه (للناس أجر ولك أجران) .

وفى صحيح البخارى عن عائشة أنه صلى الله عليه وسلم كان ينقل معهم اللَّبن فى بناء المسجد ، وذلك فى ابتداء العمل ترغيبا لهم ويقول وهو ينقل اللَّبن — وهما لعبد الله بن رواحة

هذا الحِمال لاحمالُ خيبر هذا أبر ربَّنا وأطهرْ
لاهم إن الأجر أجر الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

وجعلت قبلة المسجد للقدس .

ثانيها — بناء البيوت :

ثم بنى بيتين إلى جنب المسجد باللبن وسقَّفها بجذوع النخل والجريد ، وجعل البيت الأول لعائشة لأنها كانت زوجه وإن تأخر دخوله بها ، وجعل سودة بنت زمعة فى البيت الآخر .

ثم بنى عليه السلام بقية الحجرات عند الحاجة إليها .

قال الواقدى : « كان لحارثة بن النعمان منازل قرب المسجد وحوله فكلما أحدث صلى الله عليه وسلم أهلا نزل له حارثة عن منزل أى محل حجرة حتى صارت منازله كلها له عليه السلام .

وعن عطاء الخراسانى ومحمد بن هلال :

«أدركنا حجر الزوجات من جريد على أبوابها مسوح من شعر أسود» وروى البخارى فى «الأدب» عن داود بن قيس :

«رايت الحجرات من جريد النخل مغشى من خارج بمسوح الشعر» وكتب الوليد بن عبدالملك لأمير المدينة عمر بن عبدالعزيز أن يدخل هذه البيوت فى المسجد فهدمت .

قال ابن المسيب ليتها تركت ليراها من يأتى بعد فيزهد الناس فى التكاثر والتفاخر .

قال ابن النجار : بيت فاطمة اليوم جوف المقصورة وفيه محراب وهو خلف حجرة النبى ﷺ .

وقال السمهودى :

المقصورة اليوم دائرة على بيت فاطمة وعلى حجرة عائشة من جهة الزوراء ، وبينهما موضع يحترمه الناس ، ولا يدوسونه بأرجلهم ويذكر أنه قبر فاطمة على أحد الأقوال .

ثم تحول عليه السلام من دار أبى ايوب إلى مساكنه التي بناها.

ثالثاً — إرسال من يحضر بناته وزوجته من مكة :

أرسل عليه السلام عندما استقر بالمدينة زيد بن حارثة وأبا رافع مولاه إلى مكة وبعث ابو بكر عبد الله بن أريقط

وكتب إلى عبد الله بن ابى بكر ان يحمل معه ام رومان وام ابى بكر وعائشة وأختها أسماء :

فخرج عبد الله بن أريقط بمن عينهم له ابو بكر أهله وأولاده .

وخرج زيد وأبو رافع فقدما بفاطمة وأم كلثوم وسودة بنت زمعة وأسامة بن زيد وأم ايمن .

وبهؤلاء عمر بيت المدينة فأصبحت الزوجة التى كانت ربته هى سودة بنت زمعة ومعها من ذكر من فاطمة وأم كلثوم وأسامة وأم ايمن ، ثم ضم السيدة عائشة رضى الله عنها إلى بيت المدينة وتتابع بعد ذلك أزواجه حتى اصبحن تسعا .

هكذا فى هذه البيوتات المتواضعة والمنازل الساذجة كان يعيش صلوات الله عليه مؤدياً رسالة ربه مبلغاً لأوامره مجاهداً فى سبيل الحق مكافحاً لخير الإنسانية فى غير ما ضجر ولا ملل ولا جشع ولا طمع .

ومن تلك البيوتات تفجرت ينابيع العلم ، وفيها بزغت شمس الإصلاح بنفوس راضية وقلوب مطمئنة .

فلما كانت السنة السابعة من الهجرة اهدى المقوقس للنبى مارية القبطية (من قرية انصنا بالبر الشرقى من الصعيد فى مقابلة

الأشمونين) فاسكنها العالية من ضواحى المدينة فى المحل الذى يقال له الآن مشربة أم إبراهيم بمنزل تحيط به الكروم . فولدت له إبراهيم فى السنة الثامنة من الهجرة إلا أنه توفى فى السنة العاشرة .

ويمكن تقسيم حياة النبي الأسرية إلى أربع فترات : —

الفترة الأولى — كان أعزب حتى الخامسة والعشرين وقد تحدثنا عن هذه الفترة .

الفترة الثانية — عاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الثالثة والخمسين .

الفترة الثالثة — تزوجه عدة زوجات بين الخامسة والخمسين والستين .

الفترة الرابعة — لم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى فى الثالثة والستين .

والآن بقى أن نتكلم على الفترة الثالثة ، وهى التى تعددت فيها الزوجات حتى توفى عن تسع منهن .

هذه الفترة تبدأ من السنة الثانية للهجرة حيث بدأ القتال مع قريش والقبائل العربية الأخرى فأدى ذلك إلى قتل كثير من الذكور وهم عماد الأسر واستمرت هذه المعارك حتى السنة الثانية للهجرة .

وفى هذه الفترة بالذات تزوج النبى تلك المرات المتعددة التي قد تبدو غريبة أمام العقلية الحديثة ، ولكنها كانت أمرا عاديا لاغبار عليه ولا ينتقد . ومن ذا الذى ينتقده إذا فهم ان الدافع إلى ذلك هو الرحمة والشفقة لا الجنوح إلى المتعة واللذة؟ . فإنه ما كان يخشى على رجل قضى حياة حتى الخامسة والخمسين وهو على خير ما يكون من الطهر والعفاف أن ينغمس بعد ذلك فى اللذات. فإذا كانت فتنة النساء لاتؤثر فيه وهو فتى يمتلىء الشباب فكيف بها تأسره وهو رجل رزين كامل النضج العقلى ؟ لقد عاش النبي غالبية هذه السنين فى المدينة وما كانت حياته سهلة ممتعة بل كانت على العكس من ذلك حياة كفاح ونضال .

فقد كان فى هذه الفترة فترة تعدد أزواجه يخوض معارك موت أو حياة للإسلام والمسلمين .

لقد عوديت المدينة فى هذه الحقبة ومشت إليها جيوش لجب للقضاء على المسلمين ورمته العرب عن قوس واحدة فما كان النبي آمنا لحظة ؛ لقد كانت المعارك تلى المعارك وكل معركة اشد من سابقتها،وكانت الغزوات تعد بسرعة وكان اليهود والنصارى يناصبونه العداء، وكان خيرة أصحابه يقتلون الواحد إثر الآخر فى المعارك أو غيلة ـ أفكانت هذه الحياة حياة لذة ومتعة ؟ أم

كانت حياة شدة وكرب ما بعدها شدة وكرب؟ وإذا شاء الجنوح إلى حياة اللذة والمتعة ، وهو مالم يحدث بشهادة جميع الثقات أفكانت الظروف تواتيه ؟ .

والآن وقد عرفنا كيف يقضى النبي نهاره فى كفاح مضن شديد فكيف كان يقضى ليله ؟ . قد كان له عدد من الزوجات الحليلات المحصنات ، افكان يقضى ليله يتمتع بهن ؟ .

استمع إلى شهادة القرآن وهو أصدق القائلين : (ياايها المزمل قم الليل إلا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا. او زد عليه ورتل القرآن ترتيلا . . . إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار)

وجاء فى الحديث أنه كان يقضى نصف الليل بل أكثر من نصفه فى الصلاة وتلاوة القرآن وكان يقرأ القرآن وهو قائم حتى تورمت قدماه .

فهل بعد هذا يمكن القول أن هذا الرجل الكريم إنما اتخذ هذا العدد من الزوجات للتمتع بهن .

أما فى الفترة الرابعة فقد انتهت الحروب الداخلية باستيلاء المسلمين على مكة فى السنة الثامنة للهجرة على الرغم من وجود بعض القلاقل والاضطرابات التى ما كانت ذات بال فعادت الحياة

فى جزيرة العرب إلى هدوئها و دعتها، ومن هذه السنة الثامنة إلى أن لحق النبي بالرفيق الأعلى لم يتزوج ابدا فإن الثابت تاريخيا أن النبي لم تتعدد زوجاته إلا فى مدة الحروب عندما كان عدد الذكور من المسلمين آخذا فى النقصان .

ولنلق نظرة اخرى على الحقائق التاريخية والسياسية التى أدت إلى أن يتزوج كل واحدة من أزواجه ، فإن لكل زوجة أسبابا خاصة بها فضلا عن الأسباب العامة .

ولنبدأ أولا بالأسباب العامة لتعدد أزواج النبي صلوات الله عليه فنقول : —

إن الحكمة العامة لهذا التعدد بعد الهجرة فى سن الكهولة والقيام بأعباء الرسالة والاشتغال بسياسة البشر ومصابرة المعادين ومدافعة المعتدين دون سن الشباب وراحة البال هى السياسة الرشيدة وتربية الأمة، وضرب المثل الكامل لها فى معاشرة النساء بالمعروف والعدل بينهن وتخريج بضع معلمات للنساء يعلمنهن الأحكام الشرعية الخاصة بهن مما كان ﷺ يستحي ان يخاطب به النساء فيما كان يخصهن به أحيانا من مواعظه كما كان أكثرهن يستحيين ان يسألنه عن أحكام الزوجية والجنابة والطهارة .

وقد كان نساء المهاجرين أشدحياء من نساء الأنصار فى هذا

بل كان من نساء الأنصار من يهبنه أن يسالنه عما لا يستحيا منه.

ومن الشواهد عنهن فى ذلك ماروى عن عائشة رضى الله عنها أن امرأة من الأنصار سألت النبى ﷺ عن غسلها من المحيض فأمرها كيف تغتسل ، ثم قال «خذى فرصة ممسكة فتطهرى بها ، قالت : كيف أتطهر بها؟ قال: تطهرى بها. قالت: كيف؟ قال سبحان الله تطهرى ، قالت عائشة فاجتذبتها إلى فقلت تتبعى بها اثر الدم .

(والفرصة الممسكة قطنة أو صوفة مطيبة بالمسك) .

وكان المؤمنات يسألنه عن كل مايعرض لهن على اختلاف درجاتهن فى الحياء ، وكان أزواجه خير مبلغ له عنهن ولهن عنه فى حياته، وخير مرجع فى الاستفتاء النسوى بعد وفاته .

ومن ذا الذى يقول إن زوجا واحدة كانت تقوم بهذا الواجب وحدها؟. بل كان الرجال يرجعون بعده إلى أمهات المؤمنين فى كثير من أحكام الدين ولا سيما الزوجية ، فمن كان له قرابة منهن كان يسألها دون غيرها ، فكان أكثر الرواة عن عائشة أختها ام كلثوم واخاها من الرضاعة عوف بن الحارث وابنى اخيها القاسم وعبدالله ابنى محمد بن ابى بكر ، وحفصة وأسماء بنتى اخيها عبدالرحمن ، وعبدالله وعروة ابنى عبدالله بن الزبير من اختها أسماء .

كذلك كان أكثر الرواة عن حفصة أخاها عبد الله بن عمر وابنه حمزة وزوجه صفية بنت عبيد وأم بشر الأنصارية .

وهكذا نرى كل واحدة من أمهات المؤمنين قد روى عنها علم الدين كثير من أولى قرابتها ، حتى أن صفية اليهودية كان لها ابن أخ مسلم روى عنها فيمن روى .

وجملة القول أن أمهات المؤمنين التسع اللائى توفى عنهن رسول الله ﷺ كن كلهن معلمات ومفتيات لنساء امته ولرجالها مالم يعلمه عنه غيرهن من أحكام شرعية وآداب زوجية وحكم نبوية ، وكن قدوة صالحة فى الخير وعمل البر .

الأسباب الخاصة لكل زوج منهن بعد خديجة :

١ — سودة بنت زمعة رضى الله عنها :

الحكمة فى اختيارها أنها كانت من المؤمنات المهاجرات الهاجرات لأهلهن خوف الفتنة والتعذيب لإرجاعها عن الإسلام ولو عادت إلى اهلها لأكرهوها على الشرك او عذبوها عذاباً نكرا ليفتنوها عن الإسلام ، فاختار ﷺ كفالتها .

فضلا عما فى زواجها من تأليف لبنى عبد شمس أعدائه وأعداء بنى هاشم ومن تشريف لبنى النجار اخوال عترته

واكرم انصاره فإن امها الشموس بنت قيس بن زيد الأنصارية من بنى عدى بن النجار .

٢ — عائشة بنت الصديق رضى الله عنها :

إن فى زواج الرسول صلوات الله عليه بعائشة رضى الله عنها ومصاهرته لأول أصحابه وأعلاهم قدراً وإخلاصاً له ونصراً على ما كان من مودة بينهما قبل الإسلام — إن فى هذا الزواج أعظم منّةٍ ومكافأة وقرة عين له وخير وسيلة لنشر سنته وفضائله الزوجية .

٣ — حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها :

كانت حفصة زوجا لحسن بن حذافة وهو ممن شهدوا غزوة بدر وتوفى عنها فى المدينة بعد غزوة بدر فلما انقضت عدتها عرضها عمر على أبى بكر فسكت فعرضها على عثمان بن عفان بعد موت زوجه رقية بنت رسول الله ﷺ فقال له ما أريد أن أتزوج اليوم .

وقد ساء عمر ما كان من أبى بكر وعثمان وهما الكفؤان الكريمان لبنته . فذكر ذلك للنبى ﷺ فقال :

« يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة » .

فلقى ابو بكر عمر فقال « لا تجد علىّ فإن رسول الله ذكر حفصة فلم أكن لأخشى سر رسول الله ﷺ ولو تركها لتزوجتها »

نعم إن رسول الله تزوج عائشة في السنة الثانية من الهجرة فكان هذا قرة عين لصاحبه ووزيره الأول وخير مكافأة له في الدنيا على صدقه وإخلاصه .

فلما توفى زوج حفصة بنت وزيره الثانى رأى أن يساوى بينه وبين أبى بكر فى تشريفهما بمصاهرته ، ولم يكن فى الإمكان ان يكافئهما فى هذه الحياة بشرف اعلى من هذا .

فتزوج حفصة فى السنة الثالثة وقيل فى الثانية ولولا ذلك لكانت حسرة فى قلب عمر .

فما أجل سياسته ﷺ وما أعظم وفاءه للأوفياء له !! ويقابل ذلك إكرامه لعثمان وعلى رضى الله عنهما بتزويجهما بناته . وهؤلاء الأربعة أعظم أصحابه فى حياته ، وخلفاؤه فى إقامة ملته ونشر دعوته بعد وفاته .

٤ — زينب بنت جحش الأسدية رضى الله عنها :

إن لزواجه ﷺ بزينب قصة دفعت كثيراً من المستشرقين إلى الخوض فى المقام النبوى ، والطعن فى أخلاقه حاشاه . وفيما يلى هذه القصة توضح حكمة هذا الزواج :

زوج النبي ﷺ زينب بنت جحش بأمر الله تعالى لمولاه (عتيقه) ومتبناه زيد بن حارثة ، ثم زوجه الله إياها بعد طلاق زيد لها لحكمة لا تعلوها حكمة فى زواج احد من أزواجه .

وهى إبطال بدعة التبنى التى كانت متبعة فى الجاهلية ، وكان ذلك سنة ثلاث وقيل خمس من الهجرة .

ذلك أنه كان من عادات العرب الباطلة التى اتخذت ديناً تقليديا أنهم يتخذون لأنفسهم أبناء أدعياء يلصقونهم بأنسابهم ويعطون الدعى منهم جميع حقوق الأبناء حتى فى المواريث ومحرمات النكاح .

وما كان الإسلام ليقرهم على باطل فحرم الله التبنى وهو يعلم ماعلق بالطباع ولصق بالوجدان من تأثير هذا النسب المفتعل وأن إبطاله وإبطال لوازمه مما يثقل على الناس امتثاله كما هو شأن التقاليد العامة الراسخة ، إلا على أصحاب الإيمان الكامل والعزائم المرهفة الحد الذين لايبالون بشعور الجماهير ولايرميهم لمخالفهم بنعوت التحقير وقليل ما هم .

علم الله تعالى هذا فألهم نبيه من قبل إنزال وحيه عليه وإرساله إلى الناس مبشراً ونذيرا ان يتبنى غلاماً كان ملكا لزوجه خديجة فوهبته له واشرب قلبه حبه على ما كان من كرهه

لعادات الجاهلية الباطلة ؛ ليجعله هو القدوة الصالحة في إبطال التبنى وكل ما كان له من الأحكام ، وكان هذا الغلام زيد بن حارثة .

ومن زيد بن حارثة ؟

كان زيد بن حارثة من كرام العرب،وكانت أمه سعدى بنت ثعلبة من بنى من بن طىء وقد زارت قومها وهو معها ، فأغار عليهم جيل لبنى العين بن حر فسبوه وهو غلام يفقه واحتملوه إلى عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد فى الجاهلية .

فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته إياه لما رأت من إعجابه بأدبه وفطرته الزكية ، وكان أبوه ينشده وينشد فيه الشعر موصياً أولاده بالبحث عنه فحج ناس من قومه فرأوا زيداً بمكة فعرفوه وعرفهم فبلغوا والده حارثة خبره فخرج هو وأخوه كعب بفدائه فقدما مكة فسألا عن النبى ﷺ فقيل لهما هو فى المسجد فدخلا عليه فقالا :

يا ابن عبد المطلب ! يا ابن سيد قومه ! أنتم أهل حرم الله تفكون العانى وتطعمون الأسير ، جئناك فى ولدنا عندك فامنن علينا وأحسن فى فدائه فإنا سندفع لك .

قال : وما ذاك ؟ قالوا زيد بن حارثة .

فقال أو غير ذلك ؟ ادعوه فخيروه فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء ، وإن اختارنى فوالله ما أنا بالذى أختار على من اختارنى فداء .

قالوا فدعاه فقال : « هل تعرف هؤلاء » ؟

قال : نعم هذا أبى وهذا عمى .

قال : فأنا من قد علمت وقد رأيت صحبتى لك فاخترنى او اخترهما .

فقال زيد : ما أنا بالذى أختار عليك احداً ، أنت منى بمكان الأب والعم .

فقالا : ويحك يازيد! أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟

قال : قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذى أختار عليه أحداً .

فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك أخرجه إلى الحجر فقال : اشهدوا أن زيداً ابنى يرثنى وأرثه ، فلما راى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما . فدعى زيد بن محمد حتى جاء الله بالإسلام .

ومن تدبر خبر اختيار زيد بن حارثة للرق عند محمد ﷺ

على الحرية عند أبيه وقومه يحكم حكما عقلياً وجدانياً بأن محمداً كان من قبل النبوة آية من أكبر آيات الله تعالى فى فضائله وآدابه ـ فكيف يكون بعدها ؟

تضاعف حب النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بهذا الإيثار واعتقه وتبناه وكان التبنى أعظم شىء مستطاع فى تكريمه وتعظيم قدره وقد كان يلقب بحب رسول الله أى حبيبه .

وفى صحيح مسلم أن عبد الله بن عمر كان يقول :

« ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزل فى القرآن (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) .

بعد هذه المقدمة أقول :

لما أراد الله تعالى أن يبطل دعاية التبنى وأحكامها الجاهلية أمر رسوله أن يزوج زينب بنت جحش بن رباب من عمة النبى أميمة بنت عبد المطلب لزيد بن حارثة مولاه وهو عز وجل يعلم أنهما لا يتفقان على بقاء هذه الزوجية لأنها تتكبر عليه بالطبع وهو عزيز النفس لا يحمل ذل الكبرياء عليه .

فذهب صلى الله عليه وسلم إلى زينب فقال : إنى أريد ان ازوجك زيد بن حارثة فإنى قد رضيته لك .

قالت يا رسول الله لكنى لا أرضاه لنفسى وأنا بنت عمتك

فلم أكن لأفعل . فنزلت الآية (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) فقالت زينب للنبي ﷺ قد أطعتك فاصنع ما شئت . فزوجها زيدا ودخل عليها فكانت تغلظ له القول وتتعظم عليه بالشرف فيذهب إلى النبي ﷺ شاكياً منها ويستأذن فى طلاقها فيقول له ﷺ (امسك عليك زوجك واتق الله .) وهو يعلم أنه لابد له من طلاقها وأن الله يأمره بالتزوج بها بعده إبطالا لبدعة التبنى وما كان من تحريم الجاهلية لامراة الدعى كامراة الابن الحقيقى . ولكنه ﷺ لم يكن يظهر هذا له ولا لغيره ، وكان بمقتضى الشعور الطبيعى يخشى ما يقوله الناس ولا سيما المشركين : إن محمداً تزوج امرأة ابنه . فأنزل الله تعالى فى ذلك قوله :

(وإذ تقول للذى انعم الله عليه وأنعمت عليه امسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق ان تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا) .

وفى قوله تعالى (زوجناكها) نص على أن هذا التزوج كان

من الله تعالى لما ذكر من حكمة التشريع فيه ، ولم يكن برغبة النبي ﷺ وميله .

وقد صح أنه ﷺ لم يعقد عليها كما عقد على سائر ازواجه لأن تزويج ربه إياه بها اتوى وأثبت والعقد بعده لغو لأنه تحصيل حاصل .

٥ — هند أم سلمة المخزومية رضى الله عنها :

هى هند أم سلمة بنت أبى أمية المخزومية ، كان أبوها من أجواد العرب المشهورين وتزوجت بن عمها عبدالله بن عبدالأسد المخزومى وهو من السابقين الأولين إلى الإسلام .

أسلم بعد عشر أنفس وهو ابن عمة رسول الله ﷺ واخوه من الرضاعة ، وكان اول من هاجر إلى الحبشة وكانت معه ثم عاد إلى مكة ولما اراد الهجرة بها إلى المدينة صدها قومها وانتزعوها منه هى وابنها سلمة — ثم انتزع بنو عبد الأسد آل زوجها ابنها سلمة من آلها بالقوة حتى خلعوا يده فكانت كل يوم تخرج إلى الأبطح تبكى حتى شفع فيها شافع من قومها فأعطوها ولدها فرحلت بعيرا ووضعت ابنها فى حجرها ، وهاجرت عليه فكانت أول امرأة هاجرت إلى الحبشة ثم كانت أول ظعينة هاجرت إلى المدينة ، وكانت تجل زوجها أيما إجلال حتى أن ابا بكر

وعمر خطباها بعد وفاته من جرح أصابه فى غزوة احد فلم تقبل.

وعزاها النبي ﷺ عنه بقوله :

« سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك ويخلفك خيرا »

فقالت : ومن يكون خيرا من أبى سلمة ؟

فلم ير صلوات الله عليه عزاء ولا كافلا لها ولأولادها ترضاه غيره صلوات الله عليه وعلى آله .

ولما خطبها لنفسه اعتذرت بأنها مسنة وام ايتام وذات غيرة .

فأجاب بأنه اكبر منها سنا وبأن الغيرة يذهبها الله تعالى وبأن الأيتام إلى الله ورسوله .

فاجتمع لها من الفضائل النسب الشريف والبيت الكريم والسبق إلى الإسلام وعلو الأخلاق ولا سيما الوفاء وكفالة الأيتام

وكل منها سبب صحيح لاختيار صاحب الخلق العظيم المبعوث لإتمام مكارم الأخلاق لهذه المرأة الفضلى ان تكون من أزواجه الطاهرات وأمهات المؤمنين ومعلمات المؤمنات .

على أن لها فوق ذلك فضيلة أخرى هى جودة الفكر وصحة الرأى .

وحسبك من الأمثلة على هذا استشارة النبي ﷺ لها فى أهم ماأحزنه واهمه من أمر المسلمين فى مدة البعثة وما أشارات به عليه.

ذاك ان الصحابة رضى الله عنهم كان قد ساءهم صلح الحديبية الذى عقده صلى الله عليه وسلم مع المشركين على ترك الحرب عشر سنين بالشروط المعلومة التى تدل فى ظاهرها على ان المسلمين مغلوبون، ولم يكونوا بمغلوبين وإنما حببه صلى الله عليه وسلم للسلم ولاختلاط المسلمين بالمشركين وكراهته للحرب التى أكرهه المشركون عليها بعدواتهم هما اللذان حببا إليه قبول شروطهم لهم فى الصلح .

وكان من أثر استياء المسلمين من شروطهم ان امرهم صلوات الله عليه بالتحلل من عمرتهم بالحلق أو التقصير لأجل العود إلى المدينة ، فلم يمتثل أمره أحد ولم تقع مثل هذه المخالفة من قبل ولا من بعد .

فلما استشارها رضى الله عنها فى ذلك وقال : (هلك الناس) هونت عليه الأمر وأشارت عليه بأن يخرج إليهم ويحلق هو راسه . وجزمت بأنهم لا يلبثون ان يقتدوا به لأنهم يعلمون حينئذ أنه صار أمرا لابد منه ولا مرد له ولأن تأثير العمل فى القدوة قوى من تأثير القول وحده .

وكذلك كان . خرج صلوات الله عليه فأمر الحلاق بحلق راسه فتنافسوا فى التبرك بشعره وبادروا إلى الاقتداء به .

وكانت رضى الله عنها من اعلم أزواجه . روى عنها كثيرون من الرجال والنساء فهى تلى عائشة فى كثرة الرواية والعلم وتفضلها فى الروية والرأى .

٦ — جويرية بنت الحارث رضى الله عنها :

فى سنة ست من الهجرة تزوج الرسول صلوات الله عليه صفية بنت حيي بن أخطب الإسرائيلية من ذرية نبى الله هارون أخى موسى عليهما السلام ، وكانت من بنى النضير وأسرت بعد قتل زوجها فى غزوة خيبر فأخذها وصية فى سهمه .

فقال اهل الرأى من الصحابة : يارسول الله إنها سيدة بنى قريظة والنضير لاتصلح إلا لك .

فاستحسن رأيهم وأبى أن تذل هذه السيدة بالرق عند من تراه دونها فاصطفاها وأعتقها وتزوجها كراهة لرق مثلها فى نسبها وقومها ووصل سببه ببنى إسرائيل لعله يخفف مما كان من عداوتهم له .

وروى الإمام أحمد أنه خيّرها أن يعتقها وتكون زوجته أو يلحقها بأهلها فاختارت أن يعتقها وتكون زوجته .

وروى ابن اسحق أن بلالا قدم بصفية وبابنة عم لها على

قتلى اليهود فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب وهى تصيح وتبكى ، فقال له النبى ﷺ :

« أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما » .

وفى حديث الترمذى أن صفية بلغها أن عائشة وحفصة قالتا : نحن أكرم على رسول الله منها .

فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال :

ألا قلت : وكيف تكونان خيرا منى وزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى ، وقد لقبتها مرة زينب باليهودية احتقارا لها فهجرها النبى ﷺ شهرا كاملا عقوبة لها .

فتأمل هذه الشمائل المحمدية والتربية الإسلامية .

روى عنها ابن أخيها وعلى بن الحسن بن على رضى الله عنهم .

٨ — أم حبيبة بنت أبى سفيان الأموية رضى الله عنها .

وفى سنة سبع من الهجرة تزوج صلوات الله عليه أم المؤمنين حبيبة بنت أبى سفيان واسمها رملة وكانت تحت عبيدالله بن جحش ، وهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية ثم تنصر وارتد عن الإسلام ومات هناك وثبتت أم حبيبة على الإسلام فبعث رسول الله ﷺ عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ليخطبها عليه فزوجها إياه اى تولى عقدها .

وذلك ان النجاشى ارسل إليها جارية ابرهة فقالت :

إن الملك يقول لك إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إلى ان أزوجك منه فوكلى من يزوجك .

فأرسلت إلى خالد بن سعيد بن العاص بن امية بن عبدشمس ابن عبد مناف وهو ابن عم أبيها لأن العاص بن أمية وأبو سفيان ابن حرب بن أمية فوكلته فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر ابن أبى طالب ومن هناك من المسلمين فحضروا فخطب النجاشى فقال :

الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار أشهد أن لاإله إلا الله وان محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون .

أما بعد فإنى اجبت إلى ما دعا إليه رسول الله فقد كتب إلى ان ازوجه أم حبيبة فأجبت وقد أصدقتها عنه أربعمائةدينار ذهبا.

ثم سكب الدنانير بين يدى القوم .

فتكلم خالد بن سعيد فقال :

الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له وأن محمدا عبده ورسوله،أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أما بعد فقد

أجبت إلى مادعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوجته أم حبيبة بنت أبي سفيان ، فبارك الله لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيها .

ودفع النجاشى الدنانير إلى خالد بن سعيد بن العاص فقبضها ثم أرادوا أن يقوموا فقال النجاشى : اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا .

قالت أم حبيبة فلما وصل إلى المال أعطيت أبرهة منه خمسين دينارا فردتها علىّ ، ثم جاءتنى من الغد بعود وورس وعنبر وزباد كثير فقدمت به معى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان ذلك فى سنة سبع من الهجرة .

وإنما كان تزويجه صلى الله عليه وسلم لها تأليفا لأبى سفيان ألد أعدائه ولقومه ، فإنه لم يهن عليه أن يتركها أرملة مهينة فى بلاد الغربة بعد مصابها بتنصر زوجها .

روى عنها ابنتها وأخواها وابن أخيها وابن أختها وآخرون .

٩ — ميمونة بنت الحارث الهلالية رضى الله عنها :

فى أواخر سنة سبع من الهجرة تزوج ﷺ ميمونة بنت الحارث وكان اسمها برة فسماها ميمونة ، وكان ذلك فى إبان عمرة

القضاء وهى آخر ازواجه أمهات المؤمنين .

وقد قالت فيها عائشة أما أنها كانت من أتقانا لله وأوصلنا للرحم وقد رغبه بالزواج بها عمه العباس فهى أخت زوجه لبابة الكبرى أم الفضل ، وهو الذى عقد له عليها بإذنها .

ولولا أن العباس رأى فى ذلك مصلحة عظيمة لما عنى بهذا الزواج كل العناية .

روى عنها أبناء أخواتها ومواليهم وآخرون أجلهم ابن عباس رضى الله عنه .

وجملة القول إنه ﷺ ، راعى المصلحة فى اختيار كل زوج من أزواجه عليهن الرضوان فى التشريع والتأديب والمودة والتأليف وكفالة الأرامل والأيتام .

فجذب إليه كبار القبائل بمصاهرتهم وعلَّم أتباعه احترام النساء وإكرام كرائمهن والعدل بينهن وقرر الأحكام بذلك ، وترك من بعده تسع أمهات للمؤمنين يعلمن نساءهم من الأحكام ما يليق بهن مما ينبغى ان يتعلمه من النساء دون الرجال، ولو ترك واحدة فقط لما كانت تغنى فى الأمة غناء التسع .

ولو كان صلى الله عليه وسلم أراد بتعدد الزواج مايريد الملوك والأمراء من التمتع بالحلال فقط لاختار حسان الأبكار

على اولئك الثيبات المكتهلات منهن كما قال لمن استشاره فى التزوج بامرأة ثيب (هلا بكرا تلاعبها و تلاعبك).

على أن تعدد الزوجات فى ذلك العصر كان من الضروريات لكثرة القتلى من الرجال وحاجة نسائهم إلى مايكفلهن لأن أكثر اهلهن من المشركين . فالمصلحة فيه للنساء لا للرجال إما بالكفالة والنفقة، وإمابالشرف والتكرمة، ولذلك كن يسعين أو يسعى الآباء أو غيرهم من الأقربين إلى كفء يتزوجهن كمافعل عمر بعرض بنته حفصه على أبى بكر وعثمان .

فهل يتصور أحد ان تعدد الزوجات كان فى ذلك العهد هضما لحقوقهن وقد اعطاهن الإسلام من الحقوق والتكريم ما أعطاهن ؟

وهل يصدق أن الرجل الذى أتى بأعظم انقلاب روحى خلقى فى مدى عشرين عاما، وبدل أمة بأسرها وطردمن جزيرة العرب النقائص والرذائل، وقام وحده بما عجزت عن القيام به جميع الجهود التبشيرية، وكان متحليا بفضائل الأخلاق حتى اعتبر القدوة الصالحة لعدد هائل من البشر؟ هل يصدق أنه يهوى إلى حضيض اللذة والمتعة ؟

إن الرجل الفاضل هو الذى يداوم على الدعوة إلى الفضيلة

فإن لم يكن فاضلا مل الدعوة وانصرف إلى مايجب وهل يستطيع من يخبط فى الظلام أن يهدى إلى النور ؟

ومهما تكن نظرة هذا العالم المنغمس فى الفضائح إلى تعدد الزوجات، فما لاشك فيه أن جميع المرشدين والهادين قد تعددت زوجاتهم ومع ذلك اعترف الجميع لهم بأن حياتهم كانت القدوة للعفاف والطهارة. فإن سيدنا إبرهيم الذى يبجله أكثر من نصف العالم الآن تزوج أكثر من واحدة، وكذلك فعل يعقوب وموسى وداود من أنبياء بنى إسرائيل، وكذلك عدد كبير من أئمة الدين فى الشرق فى الهند والصين وغيرها.

ومما لاشك فيه ان هؤلاء الهداة المرشدين ماتعددت أزواجهم لمجرد المتعة الرخيصة بل التعفف كان غرضهم الأسمى.

وهذه الحقيقة وحدها جديرة بهدم كل دعوى ترمى إلى اتهامهم بالجرى وراء المتعة.

سياسته المنزلية

عدله المثالى صلوات الله عليه :

كان رسول الله ﷺ المثل الكامل والأسوة الحسنة للإنسانية فى حسن معاشرة الأزواج بالمعروف ، والقسمة بينهن بالعدل فى كل من المبيت والنفقة واللطف والكرم وفى احتمال غضبهن وغيرتهن وتنازعن بالأناة والرفق والموعظة الحسنة .

وكان يزورهن كلهن صباحا للوعظ والتعليم ، ومساء للمجاملة والمؤانسة وكن يجتمعن معه فى بيت كل منهن .

وكان يقوم فى البيت بمهنة أهله ويقضى حوائجه بيده . قالت عائشة : ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده امراة له ولا خادما قط .

وسئلت ما كان النبى يصنع فى أهله ؟

قالت كان فى مهنة أهله فإذا حضرت الصلاة قام إلى الصلاة .

فكان يخيط ثوبه ويخصف نعله ويرقع دلوه ويحلب شاته ويخدم نفسه .

وهذا يتعين حمله على اوقات، فإنه ثبت أنه كان له خدم، فتارة يكون بنفسه وتارة بغيره وتارة بالمشاركة.

وكان عليه السلام يسرّب إلى عائشة رضى الله عنها بنات الأنصار يلعبن معها وكان يريها الحبشة وهم يلعبون فى المسجد بدرقهم تدريبا على القتال وهى متكئة على منكبه ولا ينصرف حتى تودهى أن تنصرف.

وروى أنه صلى الله عليه وسلم سابقها فسبقته ثم سابقها عندما امتلأ جسمها فسبقها فقال لها هذه بتلك.

ولنترك السيدة عائشة تقص علينا هذه المسابقة الرياضية فتقول:
إنها خرجت معه فى بعض أسفاره وهى بعد جارية هيفاء ليست بذات اللحم المترهل.

فقال النبي للناس تقدموا فتقدموا ثم قال لعائشة: تعالى حتى اسابقك فتسابقا فسبقته عائشة فسكت ولم يتذمر كما هو شأن ذى الروح الرياضى.

حتى إذا سمنت وزاد وزنى وكنا فى سفرة أخرى قال للناس تقدموا فتقدموا، ثم قال لها تعالى حتى اسابقك فتسابقا فسبقها صلى الله عليه وسلم فأخذ يضحك ويقول: هذه بتلك.

اما عدله صلوات الله عليه بينهن فيتجلى فى الحوادث الآتية:

كان صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفرا ضرب القرعة بينهن إذلا يمكن السفر بهن، كلهن وترجيح إحداهن يسخط سائرهن وإن كان فيها من المرجحات ما يقتضى الترجيح إذ لا يتساوى النساء فى استعدادهن للسفر وتحملهن لمشقاته . ولكنه لما حج أخذهن كلهن معه .

ولما مرض مرضه الأخير شق عليه ان يتنقل بين بيوتهن كل يوم كما كان يفعل فى حال صحته فكان يسأل .

اين انا غداً ؟ أين أنا غداً ؟

يريد يوم عائشة فأذن له أزواجه كلهن أن يكون حيث شاء فاختار بيت عائشة وفيه توفى .

وروى عنها أنه بعث فى مرضه إلى نسائه فاجتمعن فقال :

إنى لا استطيع أن ادور بينكن فإن رأيتن أن تأذن لى أن أكون عند عائشة فأذن له .

ومن حكمة ذلك أن يدفن فى بيتها وقد كان صرح بأنه يدفن حيث يموت .

وروى عن عائشة رضى الله عنها . كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض فى القسم من مكثه عندنا ، وكان قل يوم إلا وهو يطوف علينا جميعاً فيدنو من كل امرأة من غير

مسيس حتى يبلغ إلى التى هو يومها فيبيت عندها .

ولقد قالت سودة بنت زمعة حين أسنت وخافت ان يفارقها رسول الله ﷺ ـ وهذا إحساس يلازم النساء إذا بلغن فى السن حداً يتملكهن الشك فيه فى ضعف سيطرتهن على الرجل والمحافظة على إعجابه بهن ـ قالت يا رسول الله يومى لعائشة فقبل رسول الله ذلك منها .

نعم قد كان لعائشة بنت الصديق رضى الله عنها من قلب رسول الله ﷺ ما لم يكن لأحد من نسائه بعد خديجة رضى الله عنها ، فكانت الحبيبة بنت الحبيب وكانت هى اكثرهن دلالا عليه .

ففى الصحيحين عنها قالت : قال لى رسول الله ﷺ إنى لأعلم إذا كنت راضية عنى وإذا كنت على غضبى .

فقلت : من أين تعرف ذلك ؟

قال : أما إذا كنت عنى راضية فإنك تقولين : لاورب محمد وإذا كنت على غضبى قلت لا ورب إبراهيم . قلت اجل والله يارسول الله لا اهجر إلا اسمك .

وكان هذا الحب الطبيعى الذى تعددت أسبابه أعظم دليل على عدله صلى الله عليه بين أزواجه، فهو لم يكن يفضلها على أقلهن

مزايا فى الخلق والخلق والذكاء والنسب بشىء من النفقة أو المبيت أو حسن العشرة ولذلك كان يقول فى قسمة بينهن بالعدل .

اللهم هذا قسمى فيما املك فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك .

يعنى الحب ولوازمه الطبيعية غير الاختيارية .

وما ابتلى الرجال بشىء أبعث على الجور والمحاباة كفتنة حب النساء، فإن الرجل الضعيف الدين والإرادة ليظلم اولاده ونفسه مرضاة لمن يحبها ولو أجنبية فكيف لا يظلم ضرتها .

تغاير نسائه صلى الله عليه وسلم وتحزبهن :

لنبدأ الكلام أولا عن الغيرة ثم نثنى بالكلام على التحزب :

الغيرة فى طبائع النساء الوان .

تغار المرأة على قلب الرجل الذى تحبه ولو شغلته الذكرى ولم تشغله المودة الحاضرة ، لأنها تعلم من هذا أنها لم تشغل قلبه كله ، وهى تأسى على كل مايفوتها من شواغل ذلك القلب ولو لم تكن ثمة منافسة محذورة .

وتغار المرأة من المرأة الجميلة وإن لم تنافسها على رجل تحبه وتغار من شريكتها فى رجلها كائنا ما كان حظها من الجمال .

وتغار من كل مزية غير الجمال ما كان فيها سبيل إلى الحظوة فى القلب الذى تريده لها ولا تطيق المزاحمة عليه .

ولما كان من طباع البشر ان العدل بينهم يغريهم بالمطالبة بأكثر من حقوقهم والظلم يسكتهم على مادونها ولاسيما النساء .

راى نساء النبى ﷺ أنه لا يفضل إحداهن على غيرها بشىء ما إلا أن الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة رأين أن فى هذا هضما لحقوقهن وكرامتهن وإن كان هذا الهضم ليس من فعله ﷺ وكان ينالهن من الهدايا كلهن ، فطالبن بإنصافهن وأغلظن فى المطالبة والحفن حتى أسكتهن بما يكرهن .

فالغيرة الزوجية عاطفة فى الرجال والنساء وهى فيهن أشد ولا سيما إذا تعددن عند الرجل . ولئن كان ازواج النبى ﷺ كلهن يغرن من عائشة لعلمهن بأنها أحب إليه فهى ، كانت اشدهن غيره عليه حتى كانت تغار من خديجة زوجة قبلها وهى لم ترها .

ولنسق صورا من الغيرة .

روى أبو داود والنسائى عن عائشة قالت :

ما رايت صانعة طعام مثل صفية صنعت لرسول الله ﷺ طعاماً وهو فى بيتى فأخذتنى قشعريرة فارتعدت من شدة الغيرة فكسرت الإناء ثم ندمت .

فقلت : يارسول الله ما كفارة ماصنعت !

قال : إناء مثل إناء وطعام مثل طعام .

وروى الترمذى أن عائشة قالت تعيب صفية لغيرتها منها ·

يارسول الله حسبك من صفية قصرها فقال لها :

لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته .

أى أنها كلمة فى قبحها وخبثها لو القيت فى البحر لأثرت فيه كله وخبث بها ·

وكان صلوات الله عليه فى سفر فاعتل بعير صفية وفى إبل زينب بنت جحش فضل فقال لها لكى تعطيها بعيرا من بعرانها ·

فقالت : أنا أعطى تلك اليهودية !

فتركها ذا الحجة والمحرم شهرين لا يزورها · تأديبا لها وزجرا ·

ومن ذلك ايضا أنه دخل ﷺ على صفية وكانت من أصل إسرائيلى فوجدها تبكى فسألها عن بكائها فقالت إن عائشة وحفصة قالتا نحن أكرم على النبي منك ونحن ازواج النبي و بنات عمه.

فقال لها صلوات الله عليه ·

ألا قلت فكيف تكونان خيرا منى وزوجى محمد وابى هرون وعمى موسى ·

واجتمع نساؤه ﷺ عنده فى مرضه الذى توفى فيه فقالت صفية إنى والله يانبى الله لوددت أن الذى بك بى فغمز بها ازواجه وتهكمن بقولها .

فبصر الرسول بهن فلم يرضه هذا المظهر من الغيرة فقال : مضمضن .

قلن: من أى شىء ؟

قال: من تغامزكن بها والله إنها لصادقة .

فانظر إلى أى حد تبلغ المراقبة فى الإحساس والحرص على الشعور . وانظر كيف يكون التأديب والتوبيخ فى رفق وهوادة وذوق وظرف .

أما التحزب فقد ثبت فى الصحيحين أن نساءه كن حزبين :

حزب كان رئيسته السيدة عائشة ، وأعضاؤه حفصة بنت عمر وصفية بنت حي وسودة بنت زمعة .

ونقول إن هذا الحزب هو حزب الشباب فرئيسته صغرى أزواجه ولم يتزوج بكرا غيرها .

والحزب الثانى زعيمته أم سلمة،وأعضاؤه زينب بنت جحش وأم حبيبة بنت أبى سفيان وجويرية بنت الحارث . وهو حزب الشيوخ فإن رئيسته كبرى الأزواج وكانت تقوم العلاقة بين

الحزبين على نار الغيرة وتكوين الفصول الظريفة احيانا والغير ظريفة أحيانا . والرسول ﷺ بين هذا وذاك يتجلى عدله ورعايته لهن ومحافظته على شعورهن ويبين الرفق فى معاملتهن والحرص على إرضائهن من غير ان يكون فى ذلك مساس بمبدا دينى أو تساهل فى أمر إلهى مع الصبر فى أكثر الأحيان والتغاضى والحلم والعقاب فى حزم أحيانا أخر .

من ذلك أنه اجتمع مرة حزب الشيوخ واعلن الاحتجاج على رئيسة حزب الشباب وانتدبن مندوبة عنهن لتبلغ الاحتجاج وهى زينب بنت جحش .

فدخلت على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة وقالت :

إن أزواجك أرسلننى إليك يسألنك العدل فى ابنة ابن أبى قحافة ، ثم أقبلت على عائشة تشتمها وعائشة تسمع وجعلت تراقب طرف النبى ﷺ هل يأذن لها فى أن تنتصر منها .

فلما أيقنت عائشة برضى النبى فى الانتصار استطالت عليها حتى أفحمتها .

فقال النبى ﷺ إنها ابنة أبى بكر .

فبمثل هذه السياسة كان يسكن الثورة ويقضى على التآمر ويلطف من حدة الغيرة .

وروى البخارى القصة بأسلوب مفصل عن عائشة رضى الله عنها قالت : إن نساء رسول الله ﷺ كن حزبين : فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة .

والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء النبى ﷺ . وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخرها حتى إذا كان رسول الله ﷺ فى بيت عائشة بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله فى بيت عائشة .

فكلم حزب أم سلمة (أم سلمة) فقلن لها : كلمى رسول الله يكلم الناس فيقول من أراد أن يهدى إلى رسول الله ﷺ هدية فليهدها إليه حيث كان من بيوت نسائه .

فكلمته أم سلمة بما قلن فلم يقل لها شيئا .

فسألنها ، فقالت : ما قال لى شيئا .

فقلن لها : كلميه .

قالت : فكلمته حين دار إليها أيضاً .

فلم يقل لها شيئا .

فسألنها ، فقالت : ما قال لى شيئا .

فقلن لها : كلميه حتى يكلمك ، فدار إليها فكلمته .

فقال لها لا تؤذيني فى عائشة .

قالت فقلت : اتوب إلى الله من أذاك يارسول الله .

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله ﷺ فأرسلت إلى رسول الله تقول إن نساءك ينشدنك الله العدل فى بنت ابى بكر فكلمته فقال : (يا بنية ألا تحبين ما أحب ؟) قالت بلى .

فرجعت إليهن فأخبرتهن فقلن ارجعى إليه فأبت أن ترجع .

فأرسلن زينب بنت جحش فأتته وقالت :

إن نساءك ينشدنك العدل فى بنت ابن ابى قحافة فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة وهى قاعدة فسبتها حتى إن رسول الله لينظر إلى عائشة هل تتكلم ؟

فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى اسكتتها .

فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى عائشة وقال : إنها بنت ابى بكر .

يعنى أنها مثل ابيها فى الذكاء والعقل والحجة .

وللسيدة عائشة رضى الله عنها مهارة أخرى ذكرها أنس فيما رواه مسلم ، ملخصها :

ان نساء النبي كن يجتمعن كل ليلة فى بيت صاحبة النوبة منهن ـ فدخلت زينب بيت عائشة فمد إليها النبي يده .

فقالت عائشة إنها زينب فكف النبي ﷺ يده فتقاولتا حتى ارتفعت اصواتهما .

فمر ابو بكر فسمعهما فقال يارسول الله : احث فى أفواههن التراب ، وجاءت الصلاة فخرج ﷺ ولم يكلمهما ولكن ابا بكر عاد بعد الصلاة فعنف عائشة ـ وهو المشهور بالحلم وأين حلمه من حلم رسول الله ﷺ ؟ .

وروى مسلم عن عائشة قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا خرج أقرع بين نسائه فطارت القرعة على عائشة وحفصة فخرجتا معه جميعا .

وكان رسول الله إذا كان بالليل سار مع عائشة يتحدث معها .

فقالت حفصة لعائشة الا تركبين الليلة بعيرى واركب بعيرك فتنظرين وأنظر ، قالت بلى .

فركبت عائشة على بعير حفصة وركبت حفصة على بعير عائشة فجاء رسول الله ﷺ إلى جمل عائشة وعليه حفصة فسلّم ثم سار معها حتى نزلوا .

فافتقدته عائشة (أى طلبته عند غيبته) فغارت . فلما نزلوا جعلت تجعل رجلها بين الأذخر (نبات طيب الرائحة) وتقول يارب سلط علىّ عقربا أو حية تلدغنى .

على انه يجب علينا هنا أن نقول : إن أمر الغيرة معفو عنه

ومن صور الغيرة مارواه البخارى عن أنس قال :

كان ﷺ عند بعض نسائه ـ هى عائشة ـ فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين ـ هى أم سلمة ـ بصحفة فيها طعام مع خادم فضربت التى النبى ﷺ فى بيتها ـ هى عائشة ـ يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت فجمع صلى الله عليه فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذى كان فى الصحفة ويقول ـ مبديا لعذرها ـ غارت أمكم ـ يعنى عائشة ـ ثم حبس الخادم ومنعه من العود إلى سيدته التى أرسلته حتى أتى بصحفة من عند التى هو فى بيتها فدفع الصحفة التى لا كسر فيها إلى الخادم ليوصلها إلى التى كسرت صحفتها وأمسك المكسورة فى بيت التى كسرت عقابا لها.

وهكذا كانت أحواله عليه الصلاة والسلام مع أزواجه لا يأخذ عليهن ويعذرهن وإن اقام عليهن قسطاس العدل أقامة من غير قلق ولا غضب لأن المرأة فى تلك الحالة يكون عقلها محجوبا بشدة الغضب الذى أثارته الغيرة .

وقد قالت عائشة فيما روى عنها :

إن المرأة الغَيرى لاتبصر أسفل الوادى من اعلاه .

وقد قال ﷺ إن الله كتب الغيرة على النساء والجهاد على

الرجال فمن صبر منهن كان له أجر شهيد .

بقي أن نتكلم على تواطؤ أزواجه وتظاهرهن عليه مظاهرتين: مظاهرة بسيطة انتهت بخير ، ثم مظاهرة كبيرة كادت تعصف بسعادة الرسول الزوجية وتفرق الشمل المجتمع .

ثم يأتي دور الحديث عن حادثة مروعة لولا أن الله نجى رسوله وأظهر له الحق فى الحادثة ـ وهى حادثة الإفك ـ لكان جرحا يصعب تضميده وفتقا يستحيل رتقه .

أما المظاهرة البسيطة والمؤامرة التى قضت عليها حكمة الرسول صلوات الله عليه وسهولة طبعه .

هذه المظاهرة قد رواها البخارى فى صحيحه عن عائشه رضى الله عنها قالت :

كان رسول الله ﷺ يشرب عسلا عند أم المؤمنين زينب بنت جحش ويمكث عندها .

فتواطأت أنا وحفصة بنت عمر على أيتنا دخل عليها عليه الصلاة والسلام فلتقل له أكلت مغافير (جمع مغفور بضم الميم ، وهو صمغ حلو له رائحة كريهة ينضحه شجر يسمى العرفط)

فدخل على حفصة فقالت له إنى أجد منك ريح مغافير قال لا ما أكلت مغافير ـ وكان يكره الرائحة الكريهة ـ ولكنى

كنت أشرب عسلا عند زينب بنت جحش فلن اعود له وقد حلفت على عدم شربه .

لاتخبرى بذلك أحدا ـ ولاتنس أن عائشة وحفصة من حزب وزينب بنت جحش من الحزب الآخر .

فنزلت سورة « التحريم » تقص هذه المظاهرة وتسجل تلك المؤامرة مهددة منذرة فقال تعالى :

(يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضات أزواجك والله غفور رحيم . قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم . وإذ أسَرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير . إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير . عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وابكارا)

حاصل معنى الآيات انه لاينبغى لك أيها النبى أن تبالغ فى مرضاة ازواجك فتحرم لأجلهن ما أحل الله لك .

وإن الله قد شرع لكم كفارة إيمانكم وذلك بإطعام عشرة

مساكين مرة واحدة او كسوة كل منهم ثوبا أو عتق رقبة فمن لم يستطع إحدى هذه الثلاث ـ وهو مخير فيها ـ فعليه صيام ثلاثة ايام.

والله هو العليم بافعالكم ونياتكم فيها وهو الحكيم بما يشرعه لكم فيما يعرض لكم من مقتضى الطباع البشرية فيربيكم ويزكيكم .

ثم ذكرت الآيات ذنب التى أفشت سره ﷺ وهى حفصة وارشدها هى والتى أفشت لها السر وهى عائشة إلى التوبة من ذنبهما وماصنعت، اى مالت إليه قلوبهما ووافق أهواءها وأنذرها — إن هما أصرتا على التظاهر والتمالؤ على الرسول — بأن الله هو مولاه الذى ينصره ويتولاه فى كل أمر وكذلك جبريل وصالحوا المؤمنين ـ والمراد بهم هنا أبواهما أبو بكر وعمر . رضى الله عنهما ـ ثم الملائكة بعد ذلك كله يظاهرونه ويؤيدونه

ثم هددتهما الآيات بأن الرسول إذا طلقهما هما وسائر أزواجه المتحزبات عليه فإن الله يبدله خيرا منهن فى كل مايتفاضل به النساء عنده من صفات الكمال .

ولو كان صلى الله عليه وسلم يهمه التمتع الجسدى لوصف الله تعالى البدل بصفات الحسن والجمال ولكنه لم يكن يحفل به ولو لم يكن نقصا فى نفسه .

مظاهرتهن الكبرى رضى الله عنهن .

فى هذه المظاهرة قد ائتلف الحزبان واتحد الفريقان فتظاهرن واجتمعن حوله .

وكان سبب اجتماعهن أنه لما نصر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ورد عنه الأحزاب وفتح عليه النضير وقريظة ، ظن أزواجه أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم فقعدن حوله وقلن يارسول الله :

بنات كسرى وقيصر فى الحلى والحلل ونحن على ماتراه من الفاقة والضيق وآلمن قلبه الشريف عليه السلام بمطالبتهن له بتوسعة الحال وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا أزواجهم، فتألم رسول الله وغضب غضباً شديدا فهجرهن شهرا ـ تسعة وعشرين يوما .

ثم أنزل الله عليه آية التخيير وهى الآية التى يخير الله فيها أزواجه بين الرضا بالعيش معه على ما هو عليه أو الطلاق فقال تعالى : (يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحاً جميلا . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن اجراً عظيما) .

فبدا بعائشة ، فقال عليه الصلاة والسلام :

يا عائشة إني ذاكر لك امرا ما أحب أن تعجلى فيه حتى تستأمرى — أى تستشيرى — أبويك .

قالت عائشة : وماهو ؟ فتلا عليها الآيات

قالت عائشة : أفيك أستأمر أبوى ؟ ! بل اختار الله تعالى ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت .

فقال لها عليه الصلاة والسلام إن الله تعالى لم يبعثنى معنتا (أى طالباً للعنت والعسر على الغير) ولا متعنتا لا تسألنى امرأة منهن عما أخبرتنى إلا أخبرتها .

فتتابعن كلهن على ذلك .

فلما خيرهن واخترن الله عز وجل ورسوله والدار الآخرة كافاهن الله على ذلك فحرم على رسوله أن يتزوج عليهن او يستبدل بهن أزواجاً أخرى فقال تعالى : (لا يحل لك النساء من بعد ولا ان تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا) .

والآن لنتكلم على الحادثة الكبرى والمحنة العظمى وهى حادثة الإفك .

ورد حديث الإفك فى كتب الحديث الصحيحة المعتمدة، وكانت هذه القصة سنة ست من الهجرة عقب غزوة بنى المصطلق.

وقد روتها السيدة عائشة رضى الله عنها بنفسها كما فى رواية البخارى .

قالت عائشة :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً اقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فأقرع بينهن فى غزاة (هى غزاة بنى المصطلق فى السنة السادسة من الهجرة) .

فخرج سهم عائشة فخرجت معه حتى إذا فرغ رسول الله صلى عليه وسلم من غزوته وقفل راجعاً ودنا من المدينة أمر الجيش ليلا بالرحيل بعد أن باتوا بعض الليل .

فقامت السيدة عائشة حين أعلم الجيش بالرحيل فمشت حتى جاوزت الجيش لتقضى حاجة لها .

فلما قضتها أقبلت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عقد لها قد انقطع فرجعت فالتمست العقد فحبسها طلبه والبحث عنه .

فأقبل الذين يرحلون لها فاحتملوا هودجها فرحلوه على بعيرها الذى كانت تركبه وهم يحسبون أنها فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم فلم يستنكر القوم حين رفعوا الهودج خفته فاحتملوه ، وكانت السيدة عائشة فى ذلك الوقت جارية حديثة السن .

فوجدت عقدها بعد ما ذهب الجيش وأبعد فجاءت المعسكر وليس فيه أحد فأمّت مكانها الذى كانت نازلة فيه وتلفعت بجلبابها واضطجعت وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون إليها .

فبينما هى جالسة غلبتها عيناها فنامت . وكان صفوان ابن المعطل السلمى (وهو صحابى جليل مسلم غيور حضر الغزوات ومات شهيدا) على ساقة الجيش يتخلف عنه ليلتقط ما يسقط من متاع رأى سواد إنسان نائم فأتاها وكان يراها قبل الحجاب(نزلت آيته فى السنة الخامسة من الهجرة) فاسترجع قائلا إنا لله وإنا إليه راجعون كأن ينبهها بالاسترجاع لأنه يتهيب التحدث إليها ثم قرّب البعير وقال يا أمه قومى فاركبى وأخذ بزمام البعير يقوده حتى ادرك الجيش فى نحر الظهيرة .

حدث هذا وابن سلول قد سنحت له فرصة لا يريد ان يضيعها ، فرصة القيل والقال فأطلق لسانه فى حديث الإفك على الطريق وبعد العودة إلى المدينة عسى أن يوقع بين النبى واقرب الأصدقاء إليه أبى بكر الصديق أو يفلح فى تشكيك المسلمين فى كرامة نبيهم .

قالت السيدة عائشة فى بعض ما روى عنها :

وقدمنا المدينة، فاشتكيت شهراً والناس يفيضون فى قول

أصحاب الإفك ووصل الخبر إلى النبي وإلى أبوىّ ولا أشعر بشيء من ذلك، وكان يريبنى أنى لا أعرف من رسول الله صلى الله عليه وسلم اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى. إنما يدخل على فيسلم وعندى امى تمرضنى ثم يقول :

كيف تيكم ؟ ثم ينصرف فذاك الذى يريبنى . حتى خرجت بعد ما نقهت فخرجت معى أم مسطح وهى بنت خالة أبى بكر . . . .. وعثرت أم مسطح فى قرطها فقالت : تعس مسطح . قلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدرا ؟

قالت يا هنتاه أو لم تسمعى ما قال ؟

قلت : وما قال ؟ فأخبرتنى بحديث أهل الإفك فازددت مرضا على مرضى ورجعت إلى بيتى فمكثت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم .

ثم دخل رسول الله وقال بعد أن سلم : كيف تيكم فاستأذنته أن آتى بيت أبوى وأنا أريد أن أتثبت الخبر من قبلهما .

فأذن لى رسول الله ﷺ فجئت أبوى ودخلت الدار فوجدت ام رومان فى السفل وأبا بكر فوق يقرأ .

فقالت أمى : ماجاء بك ؟

قلت لأمي يغفر الله لك. تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً ؟

قالت يابنية هوني عليك . فو الله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا اكثرن عليها .

فاستعبرت وبكيت فسمع ابو بكر صوتي فنزل فقال لأمي ماشانها ؟

فقالت : بلغها الذي ذكر من شأنها ففاضت عيناه وبكيت تلك الليلة والليلة التي بعدها وابواى عندى يظنان ان البكاء فالق كبدى .

بينما نحن على ذلك دخل علينا رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد و قال :

أما بعد ياعائشة فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبي فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله تعالى تاب الله عليه .

فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه بقطرة وقلت لأبي : أجب رسول الله قال والله لا أدرى ما أقول . فقلت لأمي اجيبي فقالت كذلك والله مادرى .

ثم قلت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في نفوسكم

فلئن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة لا تصدقونى، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى . فوالله لا أجد لى ولكم إلا قول أبى يوسف عليه السلام فصبر جميل والله المستعان .

ثم تحولت واضطجعت على فراشى وما كنت أظن أن الله ينزل فى شأنى وحيا يتلى . وكنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ رؤيا فى النوم يبرئنى الله بها .

وعند ذلك قال أبو بكر رضى الله عنه ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل على والله ما قيل لنا هذا فى الجاهلية حيث لا يعبد الله فيقال لنا فى الإسلام .

فأخذ رسول الله ما كان يأخذه عند نزول الوحى. فسُجى ووضعت له وسادة من ادم تحت رأسه .

فلما سُرى عنه إذا هو يضحك وإنه لينحدر منه العرق مثل الجمان فجعل يمسح العرق عن وجهه الكريم . وكان اول كلمة تكلم بها :

ياعائشة أما إن الله قد برأك .

فقالت أمى : قومى إليه قلت والله لاأقوم إليه ولاأحمد إلاالله الذى برأنى .

إلا ان النبي عليه السلام قضى فترة من الوقت قبل ذلك وهو في قلق شديد لا يدرى ماذا يفعل .

واستشار الصحابة فقال له عمر بأسلوبه الحاسم : من زوجها لك يارسول الله ! قال الله تعالى . قال أفتظن أن الله دلس عليك فيها ؟ سبحانك هذا بهتان عظيم .

ودعا علياً وأسامة بن زيد ليستأمرهما في فراق أهله .

فقال أسامة بن زيد: أهلك يارسول الله ولا نعلم إلا خيراً .

وقال على يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء غيرها كثير وإن تسأل الجارية — يعنى بريرة — تصدقك . فدعا بها وسألها :

أى بريرة هل رأيت من شىء يريبك ؟

قالت : والذى بعثك بالحق مارأيت عليها أمرا أغمضه أكثر من أنها جارية حديثه السن تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله.

وسأل زينب بنت جحش وهى أحب نسائه إليه بعد عائشة فقالت : أحمى سمعى و بصرى ما علمت إلا خيرا والله ما أكلمها وإنى لمهاجرتها وما كنت أقول إلا الحق .

وفى خلال ذلك كان عليه السلام يتأذى بحديث الإفك نخطب المسلمين قائلا :

أيها الناس مابال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ؟

ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيرا ؛ ولايدخل بيتا من بيوتى إلا وأنا حاضر ولا غبت فى سفر إلا غاب معى يقولون عليه غير الحق .

قال أسيد بن حضير : يارسول الله إن يكونوا من الأوس نكفيكهم وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج فمرنا أمرك فو الله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم .

فوثب سعد بن عبادة وصاح به كذبت لعمر الله ماتضرب أعناقهم أما والله ماقلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ماقلت هذا .

وهمّ به اسيد بن حضير وتساور الناس حتى كادت تكون فتنة لولا أن أدركهم النبى بحسن توفيقه .

هذه خلاصة حديث الإفك بحذافيره قال تعالى فى براءة السيدة عائشة :

(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لاتحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم .لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون

والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين . لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم . إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ولولا إذ سمعتموه قلتم مايكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين . ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم .

إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لاتعلمون . ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم .)

فى خدمه ومواليه

ومن كان على نفقاته ونعله وسواكه ومن يأذن عليه ومن كان يضرب الأعناق من يديه.. صلى الله عليه وسلم

الخدم جمع خادم غلاما كان أو جارية .
ومواليه جمع مولى اى عتقائه .

وهذه صفات متداخلة فمنهم من هو من الخدم والموالى ومنهم خادم لامولى وعكسه .

ومن كان على نفقاته أمينا .

ومن كان على نعله أى يتولاها إذا قلعها فيحفظها ويعيدها إليه إذا أرادها .

ومن يأذن عليه بالدخول لمن اراده فيعلمه به فإذا رضى ﷺ أذن له .

اما خدمه فمنهم :

أنس بن مالك بن النضر الأنصارى الخزرجى يكنى أبا حمزة

خدم النبى ﷺ تسع سنين أو عشر سنين .

وهو الذى صح عنه أنه قال قدم النبى ﷺ المدينة وانا ابن عشر سنين فجاءت بى أمى إلى النبى ﷺ وأنا غلام فقالت له يارسول الله هذا أنس غلام يخدمك فقبله وكناه أبا حمزة ببقلة كان يحبها ومازحه فقال له ياذا الأذنين .

غزا مع النبى ﷺ ثمان غزوات ودعا له ﷺ فقال : اللهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة .

وقال أبو هريرة : مارأيت أحدا أشبه صلاة برسول الله ﷺ منه ، لأنه لما خدمه تقيد بضبط فعله وكيفيته فكان يحاكيه فى صلاته بحسب الطاقة وتوفى سنة ثلاث وتسعين .

ومنهم ربيعة بن كعب الأسلمى صاحب وضوئه فيصب له الماء حين يتوضأ الرسول .

فقد روى مسلم عن ربيعة بن كعب قال :

كنت أبيت على باب النبى ﷺ وأعطيه الوضوء فأسمعه من الليل يقول (سمع الله لمن حمده)

وكان من أهل الصفة ولم يزل مع النبى ﷺ حتى قبض

صلوات الله عليه نخرج من المدينة وتوفى سنة ثلاث وستين .

ومنهم أيمن بن أم أيمن

صاحب مطهرته عليه الصلاة والسلام . استشهد يوم حنين بين يديه ﷺ لأنه كان ممن ثبت معه .

ومنهم عبد الله بن مسعود

وأمه أم عبد بن عبدود أسلمت وصحبت وهو أحد السابقين الأولين إلى الإسلام وهاجر الهجرتين وشهد بدرا والمشاهد كلها مع المصطفى ولازمه .

وقال له ﷺ (آذنتك أن ترفع الحجاب وتسمع سِوادى حتى أنهاك) رواه أصحاب الصحيح . (والسِّواد بالكسر السرار)

وقال أبو موسى قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينا مانرى ابن مسعود إلا أنه من أهل البيت لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على النبي ﷺ ولزومه له رواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى .

وقال ﷺ (من سره أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد) رواه أحمد وأبو يعلى .

وكان صاحب الوسادة أى المخدة والسواك والنعلين . فكان

إذا قام النبي ألبسه ابن مسعود نعليه ثم يأخذ العصا فيمشي بين يديه ، وإذا جلس جعلهما في ذراعيه كل فردة في ذراع حتى يقوم.

وقال عليّ أمر ﷺ ابن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشيء منها فنظر أصحابه إلى خموشة ساقيه فضحكوا منهما فقال ﷺ مم تضحكون ؟ لرجل عبد الله أثقل في الميزان من أحد - رواه أحمد بسند حسن.

وفي الصحيحين عنه قال قال لي رسول الله ﷺ (اقرأ عليّ القرآن فقلت يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال إني أحب أن أسمعه من غيري فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)

قال : حسبك الآن . فالتفتّ إليه فإذا عيناه تذرفان .

وتوفي بالمدينة سنة اثنتين وثلاثين .

ومنهم عقبة بن عامر الجهني

وكان صاحب بغلته ويقوده بها في الأسفار رفقا به ﷺ في صعود الدابة لمرتفع وهبوطها منه أو خروجها عن الطريق .

روى أحمد وأبو داود والنسائي عنه أنه قال : بينما انا أقود

برسول الله ﷺ فى نَقْب - اى طريق - من تلك النقاب إذ قال لى رسول الله ﷺ .

اركب يا عقبة وحدك فأجللت رسول الله صلى الله عليه وسلم ان أركب مركبهُ واشفقت ان تكون فى ذلك معصية لأنه مخالفة لأمره . فركبت هنيهة اى شيئاً يسيرا ثم نزلت ثم ركب صلى الله عليه وسلم وقدت به فقال لى ياعقبة الا أعلمك من خير سورتين قرأتهما الناس — أى من حيث النفع العائد عليهم كالحفظ من الشيطان ولما فى معانيهما من أسس التوحيد ومظاهر العبودية .

فقلت بلى بأبى أنت وأمى يا رسول الله فقال (قل اعوذ برب الفلق . وقل اعوذ برب الناس) .

ولى مصر لمعاوية بن ابى سفيان سنة أربع واربعين فأقام إلى سنة سبع واربعين فعزله وولّى معاوية بن خديج فأقام إلى سنة خمسين فعزله وولى مسلمة بن مخلد . وتوفى عقبة بمصر سنة ثمان وخمسين .

ومنهم أبو زيد الغفارى :

اسلم قديما بمكة وأعلن بإسلامه بين ظهرانيهم فضربوه فاجاره العباس ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه فأنقذه العباس وتوفى

بالربذة بقرب المدينة سنة اثنتين وثلاثين. وصلى عليه ابن مسعود ثم مات بعده فى ذلك اليوم.

ومنهم مهاجر مولى أم سلمة :

صحب النبي صلى الله عليه وسلم وخــدمه وشهد فتح مصر واختط بها دارا ثم تحول إلى طحا فسكنها إلى أن مات.

روى الطبرى وابن منده من طريق بـكير مولى عمرة سمعت المهاجر يقول :

خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقل لشيء صنعته لم صنعته ؟ ولا لشيء تركته لم تركته ؟

ومنهم أبو الحمراء مولاه صلى الله عليه وسلم وخادمه :

روى الترمذى وحسّنه وصححه الحاكم وابن جرير عنه قال: حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية أشهر ليس من مرة يخرج إلى صلاة الغداة إلا أتى باب علىّ فرفع يده على جنبتى البآب ثم قال : الصلاة الصلاة إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا.

ومن النساء :

بركة أم يمن الحبشية وهى والدة أسامة بن زيد رضى الله عنهم أجمعين ماتت فى أول خلافة عثمان رضى الله عنه.

وسلمى أم رافع زوج ابى رافع ويقال لها أيضا مولاة النبي وخادم النبي صلى الله عليه وسلم .

روى الترمذى عن على بن عبد الله بن رافع عن جدته وكانت تخدم النبي صلى الله عليه وسلم قالت : ما كان يكون برسول الله صلى الله عليه وسلم قرحة إلا أمرنى أن أضع عليها الحناء .

وفى طبقات ابن سعد فى قصة تزويج زينب بنت جحش قال صلى الله عليه وسلم من يذهب إلى زينب يبشرها أن الله زوجنيها .

فخرجت سلمى خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم تسرع فحدثتها بذلك .

وأم عيّاش مولاة رقية بنت النبي صلى الله عليه وسلم قالت : كنت أوضىء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا قائمة وهو قاعد — رواه ابن ماجه .

وكان يضرب الأعناق بين يديه :

على بن أبى طالب والزبير بن العوام والمقداد ابن عمرو ومحمد بن مسلمة وعاصم بن ثابت .

وكان الضحاك بن سفيان سياف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان قيس بن سعد بن عبادة بين يديه عليه السلام بمنزلة صاحب الشرطة .

وكان بلال رضى الله عنه على نفقاته عليه السلام فكان يلى امر النفقة على العيال ومعه حاصل ما يكون من المال .

ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم أنه لم يكن له بواب راتب وإنما كان عليه السلام إذا لم يكن فى شغل من أهله ولا انفراد من أمره كان يرفع حجابه بينه وبين الناس ويبرز لطالب الحاجة .

وإذا أشتغل بأمر نفسه اتخذ بوابا فقد كان أبو موسى الأشعرى أحيانا بوابا له .

ففى الصحيح عن أنس قال : مر النبى صلى الله عليه وسلم بامراة تبكى عند قبر فقال اتقى الله واصبرى قالت : إليك عنى فإنك لم تصب بمصيبتى ولم تعرفه .

فقيل لها إنه النبى صلى الله عليه وسلم .فأتت باب النبى فلم تجد عنده بوابين فقالت لم أعرفك فقال إنما الصبر عند الصدمة الأولى .

قوله (فلم تجد عنده بوابين) فائدة هذه الجملة أنه لما قيل لها إنه رسول الله صلى الله عليه وسلم استشعرت خوفا وهيبة فى نفسها فتصورت أنه كالملوك له حاجب وبواب يمنع الناس من الوصول إليه فوجدت الأمر بخلاف ما تصورته .

ولا يؤخذ على النبى صلى الله عليه وسلم أنه اتخذ له بوابا وأن هذا ينافى التواضع وهو من سمات الأمراء وحكام الدنيا .

نقول قد كفانا مؤونة الرد على هذا الاعتراض . ما ذكره الإمام القرافى .

فإنه لما قسم القرافى البدع إلى أقسام خمسة ، وذكر القسم الثالث وهو ما تناولته قواعد الندب وأدلته كاقامة صور للأئمة والقضاة وولاة الأمور على خلاف ما كان عليه الصحابة بسبب أن المقاصد الشرعية والمصالح لا تحصل إلا بعظمة الولاة فى نفوس الناس وكان الناس فى زمن الصحابة معظم تعظيمهم إنما هو بالدين ومن سابق الهجرة ، حتى أختل النظام وذهب القرن وحدث قرن آخر لا يعظمون إلا بالصور فتعين تفخيم الصور كى تحصل المصالح، وكان عمر يأكل خبز الشعير والملح ويفرض لعامله نصف شاة كل يوم لعامه أن الحالة التى هو عليها لو عملها غيره لهان فى نفوس الناس وتجاسروا عليه بالمخالفة فاحتاج إلى أن يضع غيره فى صورة أخرى تحفظ النظام .

ولذلك لما قدم الشام وجد معاوية قد اتخذ حاجبا واتخذ المراكب النفيسة والثياب الهائلة العلية وسلب ما سلكه الملوك سأله عن ذلك فقال له :

أنا فى أرض ونحن فيها محتاجون لهذا .

فقال لا آمرك ولا أنهاك .ومعناه أنت أعلم بحالك هل محتاج

إلى هذا فيكون حسنا أو غير محتاج إليه فلا يكون حسنا .

فدل ذلك من عمر وغيره على أن أحوال الأئمة وولاة الأمر تختلف باختلاف الأمصار والأعصار والقرون والأحوال؛ فلذلك يحتاجون إلى تجديد زخارف وسياسات لم تكن قديما . وربما وجبت فى بعض الأحوال .

على أن هناك أشياء ما كان عليه السلام يكلها إلى أحد من خدمه.

عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يكل صدقته إلى غير نفسه حتى يكون هو الذى يضعها فى يد السائل وكان لا يكل لأحد الوضوء من الليل حين يقوم .

نهى المؤمنين عن دخول بيوت النبى صلى الله عليه وسلم

كان فى العرب أعراب جفاة ومنا فقون عتاة مرضى القلوب متبلدو الأحاسيس وكان الجميع يدخلون بيوته صلوات الله عليه ويتحدثون إلى أزواجه فى أى وقت من ليل أو نهار .

كان هذا الأمر يثقل على النبى وعلى الصحابة وفضلائهم وكان عمر بن الخطاب من أشدهم غيرة وجرأة وحزما ومن أجمعهم لهذه الصفات على أكملها فكان يطالب النبى صلى الله عليه وسلم بحجب نسائه عن الرجال . —

فمن ذلك ما رواه البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس رضى الله عنه قال :

قال عمر بن الخطاب يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ! .

فأنزل الله آية الحجاب ، أى فكان هذا مما وافق رأيه القرآن

وروى الطبرانى بسند صحيح عن عائشة قالت :

كنت آكل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى إناء ضخم كالقصعة فمر عمر فدعاه النبى فأكل فأصابت أصبعه أصبعى فقال: « أوه لو أطاع فيكن ما رأتكن عين ».

وروى البخارى ومسلم وغيرهما من حديث أنس قال :

لما تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب أم المؤمنين دعا القوم فطعموا ، ثم جلسوا يتحدثون فأخذ كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام وقام من القوم من قام وقعد ثلاثة نفر ، فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس فرجع ثم إنهم قاموا . فانطلقت فجئت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله آية الحجاب وهى .

(يأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم

إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبي فيستحى منكم والله لا يستحيي من الحق وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا إن ذلكم كان عند الله عظيما) .

حاصل معنى الآية نهى المؤمنين عن دخول بيوت النبي صلى الله عليه وسلم على أزواجه كما كانوا يفعلون لأجل الطعام أو الكلام او غيرهما من الحاجات إلا فى حال الإذن لهم ودعوتهم فيه أو من قبله إلى طعام ناضج حاضر غير منتظرين لنضجه حتى لا يطول مكثهم فيها .

(قال) ولكن إذا دعيتم إليه والحال ما ذكر فادخلوا فإذا طعمتم أى أكلتم الطعام فانتشروا أى اخرجوا وتفرقوا بلاتريث ولا بطء ، ولا تدخلوا بيوت النبي مستأنسين لحديث أى طالبين للأنس والتسلية بالكلام مع اهلها فإن ذلكم كان يؤذى النبي ويؤلمه وإنه لفرط حيائه وأدبه كان يخفى عنهم أذاه وألمه منهم فلا يصرح لهم به ولا يعمل بموجبه فينهاهم عن الدخول والمكث

(والله لا يستحيي من الحق) أى لا يمتنع أن يظهره بالإخبار به والأمر بالتزامه والنهى عما ينافيه .

ولما كان هذا المنع لدفع الأذى عن الرسول لا لحرمان المؤمنين من الانتفاع من أزواجه بما اعتادوا أن يطلبوه من بيوته قال تعالى:

(وإذا سألتموهن متاعا) وهو كل ما ينتفع به (فاسألوهن من وراء حجاب) اى ستر مضروب دونهن بحيث يسمعن ما تطلبون من غير مواجهة ولا استئناس فى المخاطبة .

وعلله بقوله (ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى ذلكم السؤال من وراء حجاب أطهر لقلوبكم وقلوبهن من الخواطر الطبيعة والوساوس الشيطانية التى يثيرها تلاقى النساء والرجال واسترسال الجنسين فى حديث الاستئناس وشجونه واختلاف الأفهام والتأويلات فيه .

(وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله) .

وما كان لكم ومن شأنكم ولا مما يصح ان يقع منكم أيها المؤمنون إيذاء رسول الله بحال من الأحوال — لأن تعمد إيذائه ينافى الإيمان فوجب أن يتقى وتشد ذرائعه .

(ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) .

فإن الله تعالى جعلهن أمهات لكم وجعله أولى بكم من آبائكم

بل من أنفسكم وكل صحيح الإيمان يشعر من نفسه بأن رسول الله أجل فى قلبه من أمه وأبيه وأحب إليه من نفسه التى بين جنبيه.

ومن لوازم إجلاله إجلال حلائله فكيف يسمح لأحد وجدانه الدينى أن يحل من إحداهن محل الرسول صلى الله عليه وسلم.

وقد أكد سبحانه ذلك بما يدل على الوعيد الشديد على مخالفته فقال تعالى (إن ذلكم كان عند الله عظيما) أى خطبا عظيما وإثما كبيرا

ولا تدل الآية بتصريح ولا تعريض على تعليل الحجاب بالخوف على شرف صيانتهن وحصانتهن لامنهن ولا عليهن كما يتوهم بعض المعترضين من غير المسلمين على مسألة الحجاب فى الإسلام إذ يقولون إن المسلمين يحجبون نساءهم عن الرجال لعدم ثقتهم بعفتهن وهذا باطل.

فإن الحجاب ما شرع فى الإسلام إلا لسد ذريعة الفساد وصون المرأة من ذئاب الرجال الذين يعتدون ولا يستحيون ويحاولون إفساد المرأة بما أوتوا من إغراء وما وضع فى ايديهم من إمكانيات فقلما توجد امرأة خبيثة فى العالم إلا وقد كان المفسد لها رجل خبيث أو امرأة أفسدها الرجال من قبل فصارت تتقرب إليهم بإفساد أمثالها (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم)

فى عيشه صلى الله عليه وسلم فى المأكل والمشرب

إعلم أنَ الشبع بدعة ظهرت بعد القرن الأول . قال صلى الله عليه وسلم : ماملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن غلبت الآدمى نفسه فثلث للطعام وثلث للشراب وثلث للنفس . قال الحافظ بن حجر قال القرطبي :

لو سمع بقراط بهذه القسمة لعجب من هذه الحكمة .

قالت عائشة رضى الله عنها وعن والديها لم يمتلئ جوف النبى صلى الله عليه وسلم شبعا قط وإنه كان فى أهله لايسألهم طعاما ولايتشهاه إن أطعموه أكل وما أطعموه قبل وماسقوه شرب .

روى الشيخان عن أنس رضى الله عنه قال : ماشبع آل محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعا حتى قبض .

وفى صحيح مسلم : ما شبع آل محمد يومين من خبز البر إلا وأحدهما تمر ، وروى البخارى ومسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت:

توفى رسول الله ﷺ وليس عندى شيء يأكله ذو كبد إلاشطر شعير فى رف لى فأكلت منه حتى طال على فكلته ففنى .

روى مسلم عن ابى هريرة رضى الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فإذا هو بأبى بكر وعمر فقال ما اخرجكما من بيوتكما هذه الساعة قالا الجوع يارسول الله قال وانا والذى نفسى بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، فأتى بهما رجلا من الأنصار فإذا هو ليس فى بيته فلما رأته المراة قالت مرحبا وأهلا فقال لها صلى الله عليه وسلم اين فلان قالت ذهب يستعذب لنا الماء إذ جاء الأنصارى فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه فقال الحمد لله ماأحد اليوم أكرم أضيافا منى .

فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال كلوا وأخذ المدية فقال رسول الله إياك والحلوب فذبح لهم فأكلوا من الشاة ومن ذلك العذق (العذق عنقود من النخل) وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر والذى نفسى بيده لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم .

وروى مسلم عن طلحة بن نافع أنه سمع جابر بن عبد الله يقول أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى ذات يوم إلى منزله فاخرج إليه فلق من خبز فقال ما من أدم فقالوا لا إلا شىء من خل قال نعم الأدم الخل .

قال طلحة فما زلت احب الخل منذ سمعتها من جابر .

روى الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم قال :

لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ولقد أوذيت فى الله مايؤذى أحد ولقد أتت على ثلاثون من يوم وليلة مالى ولبلال طعام يأكله أحد إلا شىء يواريه إبط بلال .

وقد استشكل كونه صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا يطوون الأيام جوعاء مع ماثبت انه كان يرفع لأهله قوت سنة وأنه قسم بين أربعة أنفس من أصحابه ألف بعير مما أفاء الله عليه وأنه ساق فى عمرته مائة بدنة فنحرها وأطعمها المساكين وأنه أمر لأعرابى بقطيع من الغنم . وغير ذلك مع من كان معه من أصحاب الأموال كأبى بكر وعمر وعثمان وطلحة وغيرهم مع بذلهم أنفسهم وأموالهم بين يديه وقد أمر بالصدقة . فجاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بنصفه وحث على تجهيز جيش العسرة فجهزهم عثمان بألف بعير . إلى غير ذلك .

وأجاب عنه الطبرى كما حكاه فى فتح البارى بأن ذلك كان منهم فى حالة دون حالة لالعوز وضيق بل تارة للإيثار وتارة لكراهية الشبع وكثرة الأكل .

نعم كان صلى الله عليه وسلم يختار ذلك مع إمكان حصول التوسع والتبسط فى الدنيا له .

روى الترمذى من حديث ابى إمامة ان النبي صلى الله عليه وسلم قال :

عرض على ربى ليجعل لى بطحاء مكة ذهبا .

قلت لا يرب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك وإذا شبعت شكرتك وحمدتك .

واعلم أنه لم يكن من عادته الكريمة صلى الله عليه وسلم حبس نفسه الشريفة على نوع واحد من الأغذية لا يتعاداه إلى سواه، فإن ذلك يضر بالطبيعة جدا ولو أنه افضل الأغذية بل كان صلى الله عليه وسلم يأكل ما جرت عادة أهل بلده بأكله من اللحم والفاكهة والخبز والتمر وغيره فأكل صلى الله عليه وسلم الحلوى والعسل وكان يحبهما — رواه البخارى وغيره .

وأكل عليه الصلاة والسلام لحم الضأن .

وأكل عليه الصلاة والسلام من الكبد المشوية .

وأكل لحم الدجاج — رواه الشيخان وغيرهما .

وأكل صلى الله عليه وسلم لحم الأرنب — رواه الشيخان .

وأكل صلى الله عليه وسلم الثريد وهو أن يثرد الخبز بمرق اللحم وقد يكون معه اللحم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : اللحم سيد الطعام .

وكان عليه الصلاة والسلام يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها ولا يحتمى عنها وهذا من أكبر أسباب الصحة .

روى ابن عباس قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأكل العنب خرطاً ، أما البصل فروى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عن البصل فقالت إن آخر طعام أكله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه بصل مطبوخ .

وثبت عنه فى الصحيحين أنه منع آكله من دخول المسجد .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يترك الثوم دائماً لأنه يتوقع مجيء الملائكة والوحى كل ساعة .

وكان صلى الله عليه وسلم لا يأكل متكئاً كما صح أنه قال لا آكل متكئاً — رواه البخارى .

وقال عليه الصلاة والسلام إنما أنا عبد أجلس كما يجلس العبد وآكل كما يأكل العبد .

فى لباسه وفراشه

كان صلى الله عليه وسلم يتجوَّز من اللباس يعنى يتوسع فلا يضيِّق بالاقتصار على صنف بعينه ولا يطلب النفيس الغالى بل يستعمل ما تيسر .

روى الترمذى عن الأشعث بن سليم قال :

سمعت عمتى تحدث عن عمها قال :

بينما أنا أمشى بالمدينة إذا إنسان خلفى يقول :

ارفع إزارك فإنه أتقى وابقى فإذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت : يا رسول الله إنما هى بردة . قال : أما لك فى أسوة . فنظرت فإذا إزاره إلى نصف ساقيه .

وروى الترمذى عن جابر رضى الله تعالى عنه قال :

دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء .

وعن ابى ذر رضى الله عنه : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه ثوب أبيض ـــ رواه البخارى .

وأما فراشه صلى الله عليه وسلم :

فقد كان عليه الصلاة والسلام أخذ من ذلك بما تدعو ضرورته إليه . فعن عائشة رضى الله عنها إنما كان فراش رسول

الله الذى ينام عليه أدماً حشوه ليف — الأدم الجلد — رواه الشيخان .

وروى البيهقى من حديثها قالت :

دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم قطيفة مثنية فبعثت إلى بفراش حشوه الصوف فدخل على النبى صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا يا عائشة ؟

قلت : يا رسول الله فلانة الأنصارية دخلت فرأت فراشك فبعثت إلى بهذا .

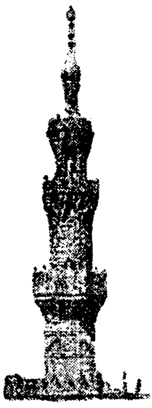
فقال : رديه يا عائشة فوالله لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة .

وروى ابن ماجه عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حصير . قال : فجلست فإذا عليه إزاره وليس عليه غيره وإذا الحصير قد اثر فى جنبه وإذا بقبضة من الشعر وهو نحو الصاع وإذا إهاب معلق فابتدرت عيناى . فقال : ما يبكيك يا ابن الخطاب . فقلت : يا نبى الله ومالى لا ابكى وهذا الحصير قد أثر فى جنبك وهذه خزائنك لا أرى فيها إلا ما ارى وذاك كسرى وقيصر فى الثمار والأنهار وانت نبى الله وصفوته وهذه خزائنه .

قال يا ابن الخطاب اما ترضى ان تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا .

وهكذا كانت حياته صلى الله عليه وسلم فى صورتها المشرقة نبراساً للإنسانية كلها متى أرادت السعادة فى ثوب من القناعة والرضى والمثل العليا الصحيحة فى البيت وفى خارجه وفى الأسرة وما يتصل بها .

حياة هدوء واعتدال وبشرية كاملة أدبها الله فأحسن تأديبها وبعثه هادياً وبشيراً صلوات الله عليه وسلامه ورضوان الله على اصحابه أجمعين .



المكتبة الثقافية

تحقق اشتراكية الثقافة

صدر منها الآن :

١ — الثقافة العربية أسبق من ثقافة اليونان والعبريين للأستاذ عباس محمود العقاد
٢ — الاشتراكية والشيوعية . . . للأستاذ على أدهم
٣ — الظاهر بيبرس فى القصص الشعبي للدكتور عبد الحميد يونس
٤ — قصة التطور ... ... للدكتور أنور عبد العليم
٥ — طب وسحر ... ... للدكتور پول غليونجى
٦ — فجر القصة ... ... للأستاذ يحي حقى
٧ — الشرق الفنان ... ... للدكتور زكى نجيب محمود
٨ — رمضان ... ... للأستاذ حسن عبد الوهاب
٩ — أعلام الصحابة ... ... للأستاذ محمد خالد

١٠ — الشرق والإسلام ... للأستاذ عبد الرحمن صدقى

١١ — المريخ ... ... للدكتور جمال الدين والدكتور محمود خيرى

١٢ — فن الشعر ... ... للدكتور محمد مندور

١٣ — الاقتصاد السياسى ... للأستاذ أحمد محمد عبد الخالق

١٤ — الصحافة المصرية ... للدكتور عبد اللطيف حمزه

١٥ — التخطيط القومى ... للدكتور إبراهيم حلمى عبد الرحمن

١٦ — اتحادنا فلسفة خلقية ... للدكتور ثروت عكاشه

١٧ — اشتراكية بلدنا ... للأستاذ عبد المنعم الصاوى

١٨ — طريق الغد ... ... للأستاذ حسن عباس زكى

١٩ — التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى للدكتور محمد يوسف موسى

٢٠ — العبقرية فى الفن ... للدكتور مصطفى سويف

٢١ — قصة الأرض فى إقليم مصر للأستاذ محمد صبيح

٢٢ — قصة الذرة ... ... للدكتور إسماعيل بسيونى هزاع

٢٣ — صلاح الدين الأيوبى بين شعراء عصره وكتابه للدكتور أحمد أحمد بدوى

٢٤ — الحب الإلهي في التصوف الإسلامي للدكتور محمد مصطفى حلمى
٢٥ — تاريخ الفلك عند العرب ... للدكتور إمام إبراهيم احمد
٢٦ — صراع البترول فى العالم العربى للدكتور احمد سويلم العمرى
٢٧ — القومية العربية ... ... للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى
٢٨ — القانون والحياة ... ... للدكتور عبد الفتاح عبد الباقى
٢٩ — قضية كينيا ... ... للدكتور عبد العزيز كامل
٣٠ — الثورة العرابية ... ... للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
٣١ — فنون التصوير المعاصرة للأستاذ محمد صدقى الجباخنجى
٣٢ — الرسول فى بيته .... للأستاذ عبد الوهاب حموده

الثمن قرشان فقط

المكتبة الثقافية

مكتبة جامعة لكل أنواع المعرفة
فاحرص على ما فاتك منها ...

مطابع دار القلم بالقاهرة